الدكتور شفيق عبد الرازق أبو سعدة

مطالعات
في
الأدب الأمويّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وبعد :

فلقد حفل الأدب فى ظلال الأمويين بالقيم الفنية والإنسانية والحضارية، والمطلع عليه يرى نفسه أمام ثروة مشرقة من آدابنا العربية الخالدة، تضرب جذورها فى أعماق الجاهلية، وتنهض بها عوامل إسلامية، وتغذيها روافد حضارية، وتنهض بها عوامل إسلامية، وتغذيها روافد حضارية، وتتظاهر على إنضاجها عقول صقلها الإسلام، وهذبها كتابه، وأقامتها حياة سياسية واجتماعية، فإذا هى متجددة أو جديدة.

ولا غرو !! فقد نهض الأدب - شعره ونثره - فى عصر بنى أمية نهضة كانت بمثابة الغرس الطيب الذى آتى أكله فى عصر بنى العباس، إذ جمع معاقدهما فى يديه، وملك أزمتها، وأخذ بناصيتهما، بعد أن كان للشعر وحده صاحب اللواء فى الجاهلية وكان صوت الخطابة جهيراً فى صدر الإسلام.

وأدب العصر أدب يصور العواطف المتأججة، والحب العميق الصادق، والأحاسيس القوية الجياشة، والعقيدة الثابتة الراسخة، والظواهر الفنية المتألقة، يحطب فى حبال الجاهلية، ويخطب ود أدبها، ويدعمه الفكر الإنسانى والحضارى ليجدد فى الإهاب، ويدع فى الخلق والابتكار.

وهذه المقومات تجعله جديراً بالبحث، وحقيقًا بالحياة، وحَفيا بالخلود، ويعدّ هذا البحث المتواضع أثراً من آثار أدبائه العماليق، وغصنًا من دوحتهم -

الظليلة، وجدولاً من معينهم الفياض، فإسداء الفضل إلى ذويه من الفضل، والإقرار بالجميل كفاء الواجب.

ولعل في صفحاته التالية ما يكشف عن العصر الأموي. ويصور أدبه، ويبسط حقائقه الفنية، ويعطي القوس باريها، ويضع الأمور في نصابها، فلقد حاولت ذلك وجهدت، وأرجو أن أكون قد وفقت. ولست أزعم أني بلغت الغاية، أو جاوزت الحافة، فما البحث إلا عجالة لهفان، وبلالة ظمآن، وحسبي أني سرت على الدرب، ونشدت الحق، وتحريت الدقة، وتقصيت الجوانب الفنية، وتتبعت أبعادها، متمنيا أن يكون البحث حلقة مثمرة في سلسلة الدراسات الأدبية.

وعلى الله قصد السبيل ...

الدكتور

شفيق عبد الرازق أبو سعدة

القاهرة في : { شعبان ١٤٢٧ هـ
سبتمبر ٢٠٠٦ م }

المجتمع الأموى

بين السياسة والأدب

إن الرسول ﷺ وآله :

أناسٌ إذا وردتْ بَحْرَهم
صوادى الغرائب لم تغرب
وليس التفحش من شأنهم
ولا طيرة الغضب المغضب
ولا الطعن فى أعين المقبلين
ولا فى قفا المدبر المذنب
نجوم الأمور إذا أدلست
بظلماء ديجورها الغَيْهب
وأهل القديم وأهل الحديث
إذا عقدت حبوة المحتبى [1]

فتح مقتل ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه بابًا دخلت منه الفتنة جذعة على المسلمين، فقد أحدث صدعًا خطيراً فى مجتمعهم، وكان له تأثيره العميق فى تطور الأحداث فيه، فهؤلاء الذين ثاروا على عثمان وتسوّروا عليه

١ - راجع مقدمة : أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى للدكتور / عبد الحسيب طه، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٨م.

داره وقتلوه وهو يقرأ القرآن كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون، فقد أظهروا لافتة الحق والعدل والحرص على سيادتهما، بينما كانوا يبطنون الدنيا وأسبابها، ويسعون إلى الملك وجاهه، وليس أدل على ذلك من النتائج التى أدت إليها ثورتهم. إذ ظهر الأمويون وعلى رأسهم معاوية متدرعًا بقميص عثمان، يطالب بدمه، ولا يرضى إلا الحكم عنه بديلاً.

وتطورت الأحداث فأدى تطورها إلى نشوب الحرب الطاحنة بين على رضى الله عنه - الذى أجمع جُلُّ المسلمين على خلافته - من جانب، ومعاوية من جانب آخر.

وظل العالم الإسلامى يتلظى فى نار الانقسام والحرب، ويكابد ويلاتهما، إلى أن تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما - بعد أن بويع بالخلافة عقب مقتل أبيه - لمعاوية، حقنًا للدماء، وحرصًا على وحدة صفوف المسلمين. وبذلك تم لمعاوية ما كان يطمح إليه، فرضى بالحكم، لكن أتراه رضى به تعويضًا عن دم عثمان، أم جزاء إسلامه وأهليه من الطلقاء الذين اضطرهم إليه فتح المسلمين الأكبر لمكة؟!

قامت الدولة الأموية إذن فى العام الحادى والأربعين للهجرة، وهو المسمَّى عام الجماعة - لا أقول على أنقاض دولة، إذ كان قيامها بتنازل الحسن كما رأيت - وأفصحت الأيام عن الحياة السياسية فى الدولة الأموية، تلك التى تمثلت فى :

• الملك وولاية العهد :

كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها النزاع بين المسلمين، فالأنصار يدلون بالإيواء والنصرة، والمهاجرون يعتزون بالعشيرة والهجرة، كلٌ يرى الأمر له، وبدت الفتنة ثم أدركها عمر، فبايع أبا بكر، فبايع الناس، ولم يخرج علىٌّ على الجماعة فبايع، مع اعتقاده وفريق من الصحابة بأحقيته بالخلافة.

كان معاوية رأس الدولة الأموية سياسيًا محنكًا وداهية له خطره، معتزًا بالأمويين الذين يؤيدون ملكه الناشئ الفتى، ويذودون عن حياضه اعتزازًا جد كبير، وقد شاء لهذا الحكم أن يكون ملكًا عضودًا فى بنيه وقومه يتوارثونه، لا خلافة إسلامية تقوم على الشورى، وهو بذلك يضمن إقرار الملك فى يد بنى أمية، وصرفه بعيدًا عن بنى هاشم. وسلك إلى غايته هذه كل وسائل الترغيب والترهيب فأخذ البيعة لابنه يزيد، على كره من المسلمين، الذى جلل صفحة تاريخه بأحداث جد جسيمة. وكان قد ولى أمر المسلمين بعد موت أبيه معاوية فى سنة ستين للهجرة.

وبهذه البيعة استقر الحكم فى الأمويين، وقد أخذ سمتًا جديدًا لم يعهده التاريخ الإسلامى من قبل يتفق والنظام الكسروى أو الهرقلى، يؤكد هذا قول عبد الله بن همام السلولى فيه :

فإن تأتوا برملة أو بهند [١]
نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى
نعد ثلاثة متناسقينا [٢]

• **العصبية القبلية :**

واتخذ معاوية رأس الدولة الأموية من الشام مقرًا لدولته، وولَّى وجهه عن الحجاز والعراق، لانعدام ثقته بولائهما له، وهدَته سياسته إلى إحياء العصبية القبلية التى قضى عليها الإسلام، هادفًا إلى صرف أنظار المسلمين عن اغتصابه

١ - رملة وهند هما : بنتا معاوية بن أبى سفيان.
٢ - انظر مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٢٩ .

للخلافة، واستبداده بالأمر، وإقراره الحكم فى أسرته من جهة، وإلى الحد من قوتهم وضعف شوكتهم بإشعال جذوة الحرب بينهم من جهة ثانية، واصطناع من يريد اصطناعه منهم من جهة أخرى. وحرصه الشديد على الملك برر له كل الوسائل، ولو كانت جثث الضحايا وأشلاء القتلى، فالغاية عنده - بل وعند كل الأمويين - تبرِّرُ الوسيلة.

وقد عادت العصبية إلى سالف عهدها فى الجاهلية جذعة فتية، وكأن طلعها رؤوس الشياطين، فتأججت نارها بين المضريين والعدنانيين واشتعل أوار الحرب بينهم، واحتدم القتال، ووأدوا صوت العقل والحكمة، وضاق الذين يرقبون الأحداث عن كثب بهذه الفتن، فقال نصر بن سيار والى خراسان يخاطب النزارية واليمنية:

مـــا بالكم تلحـــقـــون الحـــرب بينكمُ

كـــأن أهل الحـــجـــا عن رأيكم عـــزب؟!

وتتـــــركـــــون عـــــدوًا قـــــد أظلكمُ

مما تـأشّب، لا ديـن ولا حـــــــــــسب؟!

فـــمن يكن ســـائلاً عن أصل دينهــمـــو

فــــإن دينـهـمُ أن تقـــــتل العـــــرب؟!

وكان المضريون قد انحازوا إلى معاوية ومنهم يتألف جيشه، غير أنه لم يقنع بانحياز المضرية إليه، فجهد فى استمالة القبائل اليمنية، ولم يقرَّ له قرار حتى ضم إلى صفوفه قبيلة كلب من اليمنية، إذ تزوج منها أم يزيد ابنه «ميسون بنت بحدل الكلابى».

وتفاقم أمر هذه العصبية وذاع، فلم يقف الأمر عند حد الخلاف بين هذين

الحيَّين، وإنما تجاوزه إلى الخلاف والشقاق بين بطون العدنانية نفسها، فقد شبت بقرنها عصبية ربيعة وقبائلها من بكر وتغلب، ومن أشهر شعرائها الأخطل والقطامي.

وعصبية مضر ومنها قيس عيلان التي كان لها تأثيرها البالغ في الساحة السياسية، ومن شعرائها المبرزين الراعي النميرى. ومنها - أى مضر - تميم، وإليها ينتمى الفرزدق وجرير.

وقد أدى إحياء هذه العصبيات إلى إشعال نار الحرب والفتن والتأثير في السياسة وفي تولية الخلفاء والأمراء، وتأصُّل فن النقائض، والإنشاد في سُوقَيْ: الكناسة في الكوفة، والمربَد في البصرة، على نحو أسواق عكاظ وذى المجاز والمجنَة في الجاهلية.

وقد غذى الشعراء هذه العصبيات، ووقفوا إلى جانب قبائلهم يدافعون عنها وينتصرون لها. إذ أشبهت هذه العصبيات عصبيات الأحزاب السياسية، يولى الحزب المنتصر أنصاره وأولياءه، ويعزل أعداءه، والشعراء يبرزون وينافحون، وما شعراء الدولة الأموية غالبًا إلا شعراء عصبيات. فقد انتفضت العصبية القبلية في الشعر وفي نفوس الناس انتفاضات جديدة وخطيرة، وهاكم صورًا تكشف عن ذلك: تهاجى حكيم بن عياش الكلبي - من أهل الشام - والكميت بن زيد الأسدى - من مضر - هجاء يشف عن العصبية القبلية وأبعادها، قال الكلبي:

ما سرَني أن أمِّي من بني أسد
وأن ربِّيَ نجاني من النار

وأنهم زوجوني من بناتهمُ
وأن لي كلَّ يوم ألف دينار

فأجابه الكميت :

يا كلب مالك أمٌّ من بني أسد
معروفة فاحترقْ يا كلب بالنار

لكن أمك من قوم شنئت بهم
قد قنعوك قناع الخزى والعار

وعندما قال الكميت بن زيد قصيدته النونية التى يفتخر فيها بقومه من مضر بن نزار، فيذكر فيها مناقبهم، ويفضِّلهم على القحطانيين، وانتهى إلى قوله تصريحًا وتعريضًا باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها، وهو :

لنا قمرُ السماء وكل نجم
تشير إليه أيدى المهتدينا

وجدت الله إذ سمّى نزارًا
وأسكنهم بمكة قاطنينا

لنا جعل المكارم خالصات
وللناس القفا ولنا الجبينا

وما ضربت هجائن من نزار
فوالح من فحول الأعجمينا

وما وجدت نساء بنى نزار
حلائل أسودين وأحمرينا

رَدَّ عليه دعبل الخزاعى، وذكر مناقب اليمن وفضائلَها، وعرَض بغيرها فى قصيدته بقوله :

أفـــيـــقى من مــــلامك يا ظعــــينا

كـــــفـــاك اللوم مـــرّ الأربعــــينا

ألـم تحـــــزنك أحــــداث الليــــالى

يشــــيّبــــن الذوائب والقــــرونا

أحـــيّى الغــرّ من ســـروات قـــومى

لقـــــد حــــيـيت عنا يا مــــدينا

لقـــــد علـمت نـزار أن قـــــومى

إلى نصـــر النبـــوة فـــاخــــرونا

ويأسف القطامى التغلبى على الإحن والحروب الطاحنة بين حيّى نزار: قيس وتغلب، بسبب العصبية المتأججة، وينعى هذه الحال بقوله :

قـــفى قـــبل التــفــرق ياضبــاعـــا

ولا يك مــــوقف منك الوداعـــــا

قـــفى فـــادى أســـيــرك إن قـــومى

وقـــومك لا أرى لهم اجـــتــمـــاعـــا

وكـــيف تجـــامع مع مـــا اســتحـــلا

من الحـــرم العظام ومـــا أضـــاعـــا ؟!

ألم يحـــزنك أن حـــبـــال قـــيس

وتغلب قـــد تبـــاينت انقطاعـــا ؟!

غير أنه كما يأتى الخير من الشر فإن السم قد يكون فى العسل، فالعصبية

التى أعانت الأمويين كانت سببًا من أسباب القضاء عليهم، فإن اليمنية التى انتصرت للأمويين من ابن الزبير وعصبيته من قيس فى موقعة «مرج راهط» كانت من شيعة بنى العباس.

• **الـولاة :**

كما استعان الأمويون بولاة على الأقاليم الإسلامية والأمصار وبخاصة المناهضة لهم عرفوا بالشدة واتسموا بالقوة وتميزوا بالبطش، من أمثال : عمرو بن **العاص، وزياد بن** أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى، والمغيرة بن شعبة، وآل المهلب، وغيرهم، ضمانًا لاستقرار الحكم فى أيديهم. ولهذه الغاية قرب الأمويون إليهم دهاة الحكم، ودهاقين السياسة، وأصحاب الجبروت، غير أن هذا التحفظ وهذه الحيطة لم يغنيا عنهما يوم الحين شيئًا، بل على العكس فهذه السياسة قد أضرت الأمويين، وأفادت أعداءهم. إذ قصرت بالأمويين أبصارهم فأحدثوا صدعًا خطيراً بين الأقطار الإسلامية، كذلك الصدع البالغ العميق الهوة الذى نموه وأججوا أواره بين الشام والعراق، فالشام عندهم معقلهم الحصين وموضع ثقتهم، والعراق مصدر قبلقلهم وموطن عدائهم، ومن ثم استعانوا على حكمه بنماذج من هؤلاء الولاة الذين حكموه بالحديد والنار والبطش والرهبة، فنكلوا وسجنوا وقتلوا وشردوا، ولا أدل على ذلك مما قاله زياد لأهل البصرة «وأيمُ الله إن لى فيكم الصرعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صَرْعَاى !» ولا أدل على ذلك من أن الحجاج بن يوسف الثقفى قد قتل من أهل العراق بالصبر مائة وعشرين ألفًا، وتوفى وفى سجونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة؛ ولا ينبئك مثل خبير عن قول الحجاج : «وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها، فوجدنى أمرّها عودًا وأصلبها مكْسرا فرماكم بى... والله لأحزمنكم حزْم السَّلَمه، ولأضربنكم

ضرب غرائب الإبل؛» مما أجج لهب الثورة فى نفوس العراقيين وأذكاها، فقد ضاقت صدورهم بمشاعر الإحساس بالظلم والكراهية والرغبة فى الانتقام من الأمويين وساسة القمع والإرهاب، ولهذا وجدنا ثورات كثيرة من أهل العراق، كثورتهم على الحجاج تحت قيادة ابن الأشعث، فليس من شك فى أن الأمويين بهذا الاتجاه السياسى قد أفادوا الشيعة والموالى بخاصة والأعداء بعامة، وأنهم جعلوا أهل العراق يتجهون إلى توحيد جهودهم مع أهل خراسان، الذين انتشرت دعوة الشيعة بينهم انتشاراً قويًا هائلاً، وكأنى بالأمويين فى هذا النهج السياسى يسعون إلى إدناء أجَل دولتهم.

• **الترغيب والتقريب :**

من عناصر السياسة الأموية بذل المال لقطع ألسنة الناقمين وتكميم أفواه المناوئين، فقد أغدق الأمويون على الحجاز - معقل المعارضة الأول - مالاً وفيراً، حتى بلغ عطاء الحسن والحسين مائتى ضعف ما كان عليه فى عهد عمر بن الخطاب، فقد كان خمسة آلاف درهم، فأصبح ألف ألف، إذ اقتضت سياسة الأمويين أن يجعلوا الحجاز منبع الإسلام، والذى كان أشبه بينابيع النهر، والذى انتقلت منه الخلافة والمعارضة إلى الشام والعراق، أن يجعلوه معتقلاً لشباب الهاشميين، وأن يشغلوهم بالمال عن الملك، وأن يخلوا بينهم «وبين الفراغ» فأجزلوا لهم العطاء.

وهذا العطاء الجزل قد جعل من الحجاز - موطن أبناء المهاجرين والأنصار - دار غنى وترف، مما كان له عميق الأثر فى : فساد الغرائز والطباع، ولين الأحداث الناشئين، حيث اقترن بالثراء مظاهره وأسبابه من غناء وغزل رقيق، وطرب ولهو وشراب، وقيان تجلب من بلاد فارس، لهذا نشأت - كما يقول الدكتور طه حسين - طبقة من الارستقراطية الفارغة التى لا تعمل شيئًا، وإنما

يعْمل لها ما جلبت من الرقيق، والتى تنفق وقتها فى فنون اللهو والعبث، وتذهب فى حياة المجون كل مذهب، ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جلبت الحضارة جلبًا إلى الحجاز وبلاد العرب [١]. واستهوت هذه الحال المغنين والمغنيات فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة، حتى اجتمع منهم فى وقت واحد جمع غفير. منهم: «ابن سريح، والغريض ومعبد، وحنين. وابن محرز، وجميلة، وبرد الفؤاد، وسلامة، وبلبلة وحبابة» وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم؛ ومن ثم شاع الحب فى مدن الحجاز، ورقت عواطف بنيه، وازدهر شعر الغزل الرقيق.

وليت الأمر وقف بالأمويين عند حال بذل المال لمستحقيه من أبناء المجاهدين، فقد تخطاه إلى بذله للشعراء، فجعلوا لهم نصيبا فى بيت المال، وهذه بدعة ابتدعها الأمويون - لتكون ألسنتهم معهم، مادحين لهم مبالغين فى وصفهم، وما انفكت هذه البدعة قائمة إلى أن قضى عليها عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل ضمن ما قضى عليه من مظالم بنى أمية.

وهنا تقفز على لسان يراعىَ علامة تعجب!! فهؤلاء الذين أعطوا المال لمن لا يستحقه، قد منعوه عمن يستحقه!! فحرموا منه فئة من الناس هم الموالى، لذلك نسمع صرخة شاعرهم «أبى حدة» تدوى فى أرجاء المدينة إذ يقول:

أبلغ أميــة عنى إن عرضت لهـا
وابن الزبيــر وأبلغ ذلك العـربا

أن الموالى أضحت وهى عاتبـة
على الخليفـة تشكو الجوع والحـربا

---

١ - انظر: الفتنة الكبرى ص ١٠٤.

لقد كان لهذا أثره البالغ في فتن سياسية وثورات وصراع بين العرب والعجم.

إلى جانب إجزال العطاء كان معاوية يترك لخصومه حرية القول، عملا بقوله: «وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي» وقد روى أن يزيد ابنه قال له يومًا مغضبًا: أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان في ابنتك رملة؟ فقال: وما الذي قال؟ فقال: قال:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغو
اص ميزت من جوهر مكنون

فقال: صدق، فقال يزيد: وقال:

وإذا ما نسبتها لم تجدها
في سناء من المكارم دون

قال صدق: فقال: وإنه قال:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي في مرمر مسنون

فقال: كذب، وأين هو من أختها هند!؟ ولم يزد على هذا. وقد قال فيها أيضًا:

رملٌ هل تذكرين يوم غزال
إذ قطعنا مسيرنا بالتمني؟

إذ تقولين عمرك الله هل شي
ء وإن جل سوف يسليك عني؟!

وأما يزيد فغضب وحمل الأخطل على هجاء الأنصار، فقال الأخطل من قصيدته:

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته

كالجحش بين حمارة وحمار

خلوا المكارم لستمُ من أهلها

وخذوا مساحيكم بنى النجار

ذهبت قريش بالمكارم كلها

واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان بن بشير الأنصارى على معاوية، ثم حسر عمامته عن رأسه، وقال: يا معاوية، هل ترى لؤمًا؟ فقال: ما أرى إلا كرمًا، قال: فما بال عبد الأراقم يقول فينا ذلك؟ وهدّد معاوية، فترضاه ووهبه لسان الأخطل. فاستشفع فيه يزيد، فقبل النعمان شفاعته .

إن معاوية كان يدرك بدقة موقف العرب من دولته القائمة، فها هو ذا يقرر حين قدم المدينة عام الجماعة هذا الأمر فى خطبته» فإنى والله ما وليتُها بمحبة علمتها منكم، ولا مَسرَّة بولايتى» وفى قوله: «إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أمانا، وأظهرنا لهم حلما تحت غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه». وهذا عتبة أخوه يقول لأهل مصر: «قد طالت معاتبتُنا إياكم بأطراف الرماح وظُبات السيوف متى صرنا شجا فى لهواتكم ما تسيغه حلوقكم، وقذًى فى عيونكم ما تطرف عليه جفونكم».

ولذلك كان معاوية يحلم ويتجاوز ويصانع رؤوس العرب وقروم مضر، بالإغضاء والصبر واحتمال المكاره، يقول فيه أبو الجهم العلوى متمثلاً:

ونغضبه لنخبر حالتيه

فنخبر منهما كرمًا ولينا

نميل على جوانبه كأنا

نميل - إذا نميل - على أبينا [١]

ومن ثَمّ فقد كان يسمع هجاءه، فيعفو ويصفح، وكان يرضى من العلويين نقدهم وتجريحهم له، ولم لا وهو القائل لعمرو بن العاص: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» قال عمرو: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: «إن هم شدوا أرخيت، وإن هم أرخوا شددت».

استطاع معاوية - إذن - بدهائه وبلائه السياسي أن يقيم أرستقراطية أموية، وأن ينتصر للشام، ولما وافته منيته تلفتت هذه الأرستقراطية فلم تجد أحدا يَعْدِ لهُ أو يدانيه دهاءً وسياسة، فافترق المسلمون وشبت الثورات، وشاع السخط، وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر لا يخفى في هذا كله، فقد كان - كما جاء في تاريخ الطبري - بلا دين، يعاقر الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان «وقد طرق مثل هذه الصفات ابن عرادة الشاعر حين هجا يزيد بقوله:

أبني أمية إن آخر ملككم

جسد بحوارين ثَمَّ مقيم

طرقت منيته وعند وساده

كوب وزق راعف مرثوم

ومرنة تبكي على نشوانة

بالصنج تقعد تارة وتقوم [٢]

---

١ - البيان والتبيين: ج ٣ ص ١٧٣ .

٢ - انظر تاريخ الطبري: ج ٧ ص ٤، ٤٣ .

وكان يزيد فى عنف جده أبى سفيان، ابتلته السياسة بخروج ابن الزبير، وبثورة مكة والمدينة، ففى عهده وبأمر منه قذفت جيوشه الكعبة بالمجانيق وأشعلت فيها النيران، واستباحت مدينة رسول الله ﷺ، وهو صاحب المأساة المروعة التى جللت صفحة تاريخه بظلال الشناعة وألواه البشاعة، تلك المأساة الدامية المتمثلة فى مقتل سبْط رسول الله عليه الصلاة والسلام الحسين بن على سيد شباب أهل الجنة فى كربلاء، والتى صبغت أدب الشيعة بالحزن العميق. والرثاء النائح، والمديح المبتهل، والعصبية الحاقدة، على غرار قول بنت عقيل بن أبى طالب تبكى الحسين حين قتل :

مـــاذا تقـــولون إذ قـــال النبى لكم
مـــاذا فـــعلتم. وأنتم آخــــر الأمم ؟!!
بعـــترتى وبأهلى بعـــد مـفـتـقـدى
نصف أســارى ونصف ضــرجــوا بدم ؟!!
مـــا كـــان هذا جـــزائى إذ نصـــحت لكم
أن تخلفـــونى بشـــر فى ذوى رحـــمى !! [1]

• • •

لكل هذا تفاقم السخط فى النفوس، وغلت بالغضب الصدور، وسفرت الفتنة، وكثرت الأحزاب، إذ كان السخط عامًا شاملا.

وقد ظلت الخلافة التى أسسها معاوية تنتقل من حاكم إلى حاكم، ومن بيت سفيانى إلى بيت مروانى، حتى مروان بن محمد بم مروان فدالت الدولة فى سنة ثنتين وثلاثين ومائة للهجرة على يد العباسيين، بعد أن حكمت ثنتين وتسعين سنة.

---

١ - مروج الذهب : ج ٢ ص ٧٥ .

• عروبة الدولة :

اتجهت سياسة الأمويين إلى الاعتزاز بالعنصر العربى، والإشادة بشأنه، وإكباره لسموه وحقه فى أن يكون المسيطر، تدين لولائه الشعوب المغلوبة على أمرها، واستعلى الأمويون لذلك على الموالى واحتقروهم، ولم ينظروا إليهم نظرة رعاية أو تقدير، وهم بذلك قد نقضوا غزل مبدأ المساواة الذى نادى به الإسلام.

كانت الدولة الأموية عربية خالصة، وكان الأمويون لذلك لا يستخلفون أبناء الإماء [1] ومن هنا أحلت الحكومة الجنس العربى محلاً راقياً، وألقت فى يديه مقاليد أمور الدولة وأزمتها من جيش وولاة وكبرى المناصب فى السياسة والقضاء والإدارة، وأقصت الموالى عن كل ما له قيمة؛ وعروبة الحكومة المتمثلة فى أشخاص الخلفاء والولاة والقواد، ومظاهر الحياة - اجتماعية ودينية وأدبية وعقلية - إنما ترجع إلى قرب عهد الدولة من البداوة الأولى [2] ولعل الأمويين قد بلغ بهم بُعد النظر السياسى إلى كبح جماح هؤلاء الموالى وتذكيرهم الدائم بالسيطرة العربية من أجْل أن يخضعوا لها، ولا تحدثهم نفوسهم بالخروج عليها، ولهذا ازدروا هؤلاء الموالى واحتقروهم من جانب، وأثقلوا كاهلهم بالضرائب من جانب آخر.

غير أن الكبت دائماً ما يولد الانفجار! وأن سوء المعاملة من الأمويين لابد أن يقابله رد فعل من الموالى! ولهذا فقد تولد فى نفوس الموالى تيار عكسى نقموا به على العرب، ووضعت الشعوبية - تلك التى تجد العصبية الجنسية - آنذاك أصولها، والتى بلغت أوجها فى الدولة العباسية، - ولعل ظهور النزعة الشعوبية

---

١ - العقد الفريد : ج ٤ ص ١٨٠ .

٢ - انظر : تاريخ الشعر السياسى : د. أحمد الشايب ص ٢٢١ .

لدى الموالى أخطر ما فى الأمر - إلى جانب اشتراك الموالى فى الثورات والقلاقل والفتن التى هبّت فى وجه الأمويين، والتى أطاحت بدولتهم فى النهاية، وكان قد نبه إلى خطرهم نصر بن سيار الذى كان للأمويين عيناً يقظى بخراسان قائلا:

أرى بين الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى
وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئها تجن حربا
مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب : ليت شعرى
أأيقاظ أميةُ أم نيام ؟!!
فإن يك قومنا أضحوا نياما
فقل : قوموا فقد حان القيام ؟!! [1]

• • •

ومهما كانت النتائج التى أدت إليها سياسة الأمويين فقد بقيت الدولة عربية إسلامية غير خاضعة لسلطان إحدى الحضارتين : الفارسية أو الرومية، وقد سمحت هذه السياسة للتقاليد العربية أن تسود، ولكثير من مظاهر الجاهلية أن تستمر.

كما اقتضت سياستهم الحفاظ على الصبغة والثقافة العربية، ولهذا اجتهدوا فى تحويل كل الدواوين فى كل الأمصار إلى اللغة العربية، وحرصوا على

---

١ - مروج الذهب : ج ٣ ص ١٧٠ .

أن ينشئوا أبناءهم بالبادية، ليرتضعوا أفاويق اللغة الفصحى التي لم تكدر بلحن أو عجمة، ويكتسبوا الملكة والفطرة، ويتعلموا الشعر والأدب، وكانوا مولعين بعقد المجالس الأدبية؛ ولقد كان لهذه السياسة أثرها الخالد في إحياء اللغة والأدب وبلوغهما مكانة مرموقة لا تسامى. وكانوا تبعا لهذه السياسة المتعصبة يحرِّمون زواج بنات العرب من الموالي، يحدثنا صاحب الأغاني: أن رجلا من الموالي خطب بنتا من بني سليم وتزوجها، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة، وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه، فأرسل الوالي إلى هذا المولَى، ففرق بينه وبين زوجته، وضربه مائتي سوط، وحلق رأسه وحاجبيه، فقال محمد بن بشير:

قضيت بسنة وحكمت عدلا
ولم ترث الحكومة من بعيد
حمى حدبًا لحوم بنات قوم
وهم تحت التراب، أبو الوليد
وفي المائتين للمولى نكال
وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى
فهل يجد الموالي من مزيد ؟!
فأي الحق أنصف للموالي
من اصهار العبيد إلى العبيد [1]

• • •

١ - الأغاني: ج ١٤ ص ١٥٨ .

الأحزاب السياسية وآثارها الأدبية :

اتسمت الحياة السياسية في العصر الأموى بالقلق والاضطراب والانقسام والنعرات العصبية والثورة، فلم تنعم بالهدوء، ولم تظفر بالاستقرار. فقد اعتبر جمهرة المسلمين أن الأمويين اغتصبوا الخلافة اغتصابا، إلى جانب أن الحكم قد انتقل إلى الأمويين والناسُ أحزاب وفِرَق، تدور في فلك : الأموية والشيعة، والخوارج، وتتمخض ولاية معاوية العهد لابنه يزيد عن ميلاد حزب الزبيريين، ولهذا ساد القلق الحياة في كل الأقطار، بيد أن الشام - مركز الحكم الأموى - كانت من بين الأقطار الإسلامية تنعم بالهدوء المحدود أو النسبى، إذ كان الشام بنجوى من الثورات النفسية والأزمات السياسية، فقد قامت في العراق والحجاز أحزاب سياسية تناوئ الحزب الأموى الحاكم وتناهضه، وتدعو إلى الانقضاض عليه، وتنكر جميعها أحقية الأمويين في خلافة المسلمين، وتتمثل هذه الأحزاب في : حزب الشيعة، وحزب الخوارج، والحزب الزبيرى.

وكان لكل حزب من هذه الأحزاب - إلى جانب الحزب الأموى - آثار لا تجحد في السياسة والأدب بعامة والشعر بخاصة، فضلا عن الاتصال بالعصبية القبلية التي أحياها بنو أمية، بعد أن كان الإسلام قد ألف بين القلوب، واستل الإحن من النفوس، والتي تحدثنا عنها آنفا.

وتبعا لهذه الحياة السياسية كان أدب هذا العصر إلا أقله أدبا سياسيا. فقد تأصل ونما فن «الشعر السياسى» فالأمويون قد أحيوا هذا اللون من الشعر بحياة العصبية العامة، وألبسوه ثوبه الجاهلى الفضفاض، وجهدوا في تأريث الإحن والبغضاء، ليذكوا ناره ويؤججوا في لهيبه، فقربوا الشعراء واستخدموهم في نشر ما يريدون، مجزلين عطاياهم رافعين من شأنهم، وها هو الأخطل يصور العصبية الموروثة والأحقاد القديمة بقوله :

وقـــد ينبت المرعى على دِمَن الثـــرى

وتَبـقَى حـزازات النفـوس كـمـا هيـا

كذلك فإن الأمويين وعلى رأسهم معاوية قد تركوا خصومهم السياسيين أحرارا، يقولون ما يعنّ لهم، يصور هذا قول عقبة الأسدى فى هجاء معاوية سياسيا :

مـعــاوى إننا بشـر فـأسـجح

فلسنا بالجـبـال ولا الحـديد !!

أكلتم أرضنا فـجـردتموها

فـهل من قـائم أو من حـصيـد ؟!!

فـهـبنا أمـة هلكت ضـيـاعـا

يزيد أمـيـرها وأبو يزيد !!

أتـطمـع بـالخـلود إذا هـلكـنـا

ولـيـس لـنـا ولا لـك مـن خـلـود ؟!

ذروا خـول الخـلافـة واسـتـقـيـمـوا

وتأمـيـر الأرازل والعـبـيـد !! [1]

لكل هذا نما فن «الشعر السياسى» وازدهر، وفنى موضوعه فى فنون الشعر، كما تفنى شآبيب المطر فى عباب المحيط .

---

١ - العقد الفريد : ج ١ ص ٢٩ .

حزب الشيعة[*]:

آثرت أن أبدأ حديثى عن الأحزاب بالحزب الشيعى وذلك لسببين: أحدهما يتصل بتاريخ هذا الحزب، والآخر يتعلق بمكانته وخطورته.

فهو - بلا شك - من حيث النشأة أقدم الأحزاب جميعا، إذ ترجع نشأته إلى ذلك الفريق من الصحابة الذين رأوا عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أن علىّ بن أبى طالب أحق الناس بخلافته، إذ عدّوه الوارث الشرعى لرسول الله، ذلك للأواصر الرحمية التى تربط بين علىّ ورسول الله ﷺ، وإصهاره إليه، وحسن بلائه فى نصرة الدين الإسلامى، وكفايته الخاصة؛ وهى فكرة فطرية بحتة، ولكن عليًا مع شعوره أنه أولى بهذه الخلافة بايع الخلفاء الثلاثة الأولين - أبا بكر وعمر وعثمان - بعد تلكؤ نزولا على إرادة المسلمين، أو خضوعا لنتائج النظام الانتخابى الذى تمت به مبايعة أصحابه [1].

والأمويون أنفسهم لم ينفسوا على علىّ هذه المكانة؛ بل نجد - كما جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٦ ص ٧ - أبا سفيان ابن حرب زعيمهم يدفع الهاشميين دفعا إليها؛ فهو لا يرى إلا عليًا كفءًا لهذا المنصب الجليل، فقال:

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكمُ
ولا سيما تيم بن مرة أو عدىّ
فما الأمر إلا فيكمُ وإليكمو
وليس لها إلا أبو حسن علىّ

★ - الشيعة فى اللغة شيعة الرجل أتباعه وأنصاره، وغلب هذا الاسم على كل من يتولى عليًا وأهل بيته، وتُجمَعُ على: أشياع وشيع.

١ - تاريخ الشعر السياسى: ص ١٨٤ .

وقد كبتت هذه الفكرة فى نفوس أصحابها طيلة خلافة الشيخين : أبى بكر وعمر، وساعد على خمودها عدلُهما، وانتصافهما، ومحاربتهما العصبية القبلية، واشتغال الناس بالفتوح ونشر الدعوة الإسلامية، إلى أن تولى عثمان وكان لينا رحيما هادئا وديعا وقد وهنت يده المصرفة، فاستوزر مروان بن الحكم، فحكم آل عثمان بعصبيتهم الأموية، لا بقوميتهم العربية، فاستيقظت الفتنة، وتحرك ما كان كامنا فى نفوس القوم، ووثبت الفكرة الشيعية وازدهرت؛ ومن ثم فإن خلافة عثمان كانت عاملا أدى إلى تطلع الأمويين إلى استمرار الحكم فيهم، فقد رأوا فى هذه الخلافة استعادة لمجدهم القديم، كما كانت عاملا على أن تقوى فكرة الشيعة أو الهاشمية، حتى اصدمت الفكرتان : الأموية والهاشمية بعد مقتل عثمان.

روى الطبرى لعلىٍّ عديدا من الخطب أثنى فيها على من سبقوه، ومنها [1]:

«أما بعد : فإن الله جلّ ثناؤه بعث محمدا ﷺ بالحق، فأنقذ به من الضلالة، وانتاش به من الهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبض إليه، وقد أدى ما عليه ﷺ . ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه، واستخلف أبو بكر عمر رضى الله عنه، فأحسنا السيرة وعدلا فى الأمة : وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله ﷺ، فغفرنا ذلك لهما؛ وولى الناس عثمان رضى الله عنه، فعمل بأشياء عابها الناس عليه».

أما من حيث خطر هذا الحزب فهو أخطر الأحزاب فى تاريخ الأمة الإسلامية. فما استكان حتى قضى على دولة بنى أمية، لتمكنه من النفوس.

---

١ - تاريخ الطبرى : ج ٦ ص ٤ .

يقوم هذا الحزب على: قصر الخلافة على آل بيت رسول الله، وبمعنى أدق: أن تكون في عليّ وبنيه: فإذا كان الأمويون قد حبسوا الحكم في الأسرة الأموية فهذا الحزب يرى حبسه في بيت عليّ من الهاشميين: ومن ثَمّ كان التربص والمعارضة، وكان العراق مقر هذا الحزب، لذلك كانت مصدر الثورات ومنبع القلاقل.

والشيعة فرق منها المقتصدة في عقائدها وأفكارها، والمغالية فيها، وقد اشتهرت من بينها فرقتان هما: الإمامية والزيدية، والإمامية نسبة إلى الإمام، ومعظم تعاليمهم تدور حوله، والإمام هو عليّ - استنادا إلى وصية الرسول له بالخلافة - ثم أبناؤه من فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وهؤلاء يعدون أبا بكر وعمر ظالمين لاغتصابهما حق عليّ.

وقد نبتت من الإمامية بعد مقتل الحسين فرقة كان لها خطرها هي فرقة الكيسانية، أصحاب كيسان مولى عليّ [١] بزعامة المختار الثقفي، وكانت تدعو إلى محمد بن الحنفية [٢] وأبرز شعرائها كثيِّر عزة.

وأما الزيدية فتنسب إلى زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ، وكانت هذه الفرقة معتدلة،. فلم تزد على أن جعلت الإمامة محصورة في أولاد علي من فاطمة، وقد قتل زيد بالكوفة وصلب بها ثم أحرق وذرى، حين خرج على هشام ابن عبد الملك؛ وفي هذا يقول شاعر الأمويين حكيم بن عياش الكلبي:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة

ولم أر مهديًا على الجذع يصلب

---

١ - هذا ما عليه الغالبية، والصحيح نسبتها إلى أبي عميرة - كيسان مولى بجيلة ورئيس شرطة المختار، لأن كيسان مولى عليّ قتل في صفين قبل ظهور هذه الفرقة بأكثر من ربع قرن.

٢ - نسبة إلى أمه خولة بنت إياس من بني حنيفة.

وكانت بعض التعاليم فى الشيعة تتصل بأفكار فارسية كعصمة أئمتهم من الخطأ، فتراها تتصل بفكرة تقديس الملوك عند الفرس، ومن تعاليمهم: التقية والرجعة إلى غير ذلك من السموم التى انتشرت وجاست الشيعة على يد ابن سبأ.

وهذا كثيِّر بن عبد الرحمن يصور لنا بعض أفكار الشيعة، كالغيبة والرجعة فى قوله:

ألا إن الأئمـــــــــــة مـن قـــــــــريش
ولاة الحق أربعـــــــــة ســـــــــواء
علىٌّ والثـــــــلاثة من بنيــــــــه
هم الأســـــباط ليس لهم خـــفـــاء
فســــــــبط سبط إيمان وبرّ
وســــبط غيـــبتـــه كـــربلاء
وســـــبط لا تراه العـــين حـــتى
يقـــود الخـــيل يقـــدمـــهـــا اللواء
تغـــــيّب لا يرى عنهم زمـــــانا
برضـــوى عنده عـــسل ومـــاء

وكان هذا الحزب يسعى جاهدا وجادا إلى استرداد حقه فى الخلافة الذى اغتصبه الأمويون، وكان الأمويون يرصدونهم، وينكلون بهم أشد تنكيل، فكلما خرج زعيم شيعى قتلوه، فقمع الثوار كان وسيلتهم إلى الحفاظ على كيان دولتهم، وقست قلوبهم إلى حد أن قتلوا الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر

من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة فى عهد يزيد بن معاوية ؛ وهذه النكبة قد أثارت كثيرا من الأسى فى نفوس العلويين، وأثارت فى شعرهم الحزن واللوعة والشجن: وهكذا كان :

لكل أوان للنبى محمد

قتيل ذكى بالدماء مضرج

ولم يخفت صوت الحزب الشيعى، إذ كثرت الثورات فى العراق، وهى ثورات تحمل روح الكراهية والسخط على بنى أمية، من أشهرها : ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج، وثورة يزيد بن المهلب. غير أنها لم تكن ثورات منظمة، ولم تظفر من بينها بهذه الخاصية إلا ثورة المختار الثقفى. الذى تغير بمقتله مجرى الحركة الشيعية، وتحول إلى الدعوة السرية فى خراسان، وظل الحزب الشيعى يعمل فى الخفاء، حتى انقض أركان الدولة الأموية، ونقض غزلها ونكس علمها.

وكان للحزب عامة شعراؤه الذين ينفحونه وينافحون عنه، ويقررون مبادئه ويمثلون نظريته. من ذلك قول أبى الأسود الدؤلى :

يقول الأرذلون بنو قشير

طوال الدهر لا تنسى عليا ؟!

فقلت لهم : وكيف يكون تركى

من الأعمال مفروضا عليا

أحب محمدا حبا شديدا

وعباسا وحمزة والوصيا

بنى عم النبى وأقربيه

أحب الناس كلهم إليا

همْ أهل النصيحة غير شك
وأهل مودتي ما دمت حيًا

ويقول الكميت : صاحب الهاشميات : يتمنى حاكما هاشميا ، ويدعو على بني أمية :

فقل لبني أمية حيث حلوا
وإن خفت المهنّد والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه
وأشبع من بجوركمُ أجيعا
بمرضيِّ السياسة هاشميٍّ
يكون حيًا لأمته ربيعا
يقيم أمورها ويذبّ عنها
ويترك جدبها أبدا مريعا

وقد صبغت حادثة الحسين أدب الشيعة بالحزن والرثاء والابتهال والعصبية الحاقدة وأمدته بمدد زاخر من المعانى والأخيلة والواطف ، فغزرت مادته ، واتسع مجال القول فيه ، فقد بعثته عاطفتان بارزتان هما : عاطفة الحزن ، وعاطفة الغضب ، تصدره الأولى حزينا باكيا ، وتبعثه الثانية قويا ثائرا ، لقد كان أدبهم صدى لهذه الدماء المسفوحة والجثث المطروحة ، وهو فى كل حال يصور الآلام ، ويستميل القلوب ويشرح القضية الشيعية ، يقول أيمن بن خريم الأسدى مفاضلا مادحا :

نهاركمُ مكابدة وصوم
وليلكمُ صلاة واقتراء

بكى نجد غداة غد عليكم
ومكة والمدينة والجواء

أأجمعكم وأقواما سواء
وبينكمُ وبينهمُ الهواء ؟!!

وهم أرض لأرجلكم وأنتم
لأرؤسهم وأعينهم سماء !!

• • •

وشعراء الشيعة يجمعون فى شعرهم بين الاحتجاج والتصوير . يتزعم الكميت ناحية الاحتجاج فى هاشمياته ، من ذلك احتجاجه لنظرية الوراثة فى بائيته :

وقالوا : ورثناها أبانا وأمنا
وما ورثتهم ذاك أمٌ ولا أب

يرون لهم فضلا على الناس واجبا
سفاها ، وحق الهاشميين أوجب

يقولون : لم يورث ، ولولا تراثه
إذاً شركت فيه بكيل وأرحب

همُ شهدوا بدرا وخيبر بعدها
ويوم حنين ، والدماء تصبب

فإن هى لم تصلح لحىٍ سواهم
فإنَ ذوى القربى أحق وأقرب

• • •

ونهض بالجانب التصويرى كثيرون، بيْدَ أن دعبل بن على الخزاعى يعد امتدادا لهم، والذى تعد تائيته الرائعة صورة لما ابتلى به العلويون من نكال وهوان، ومطلعها :

مـــــدارس آيـات خـلـت مـن تـلاوة

ومنزلُ وحى مـقـفـر العـرصـات

والتى منها :

همُ أهلُ مـيـراث النبىِّ إذا اعـتـزوا

وهم خـيـر قـادات، وخـيـر حُـمـاة

ومـا الناس إلا حـاسـد ومكـذب

ومـضـطـغـن، ذو إحْـنـة وتـرات

ألـم تر أنـى مُـذ ثلاثـون حـجـةً

أروح وأغـدو دائم الحـسـراتِ ؟

أرى فـيْـأهم فى غـيـرهم مـتـقـسَّمًا

وأيديَهُم من فـيـئـهم صـفـرات

فلولا الذى أرجـوه فى اليـوم أو غـدٍ

تـقـطَّع قلبى إثْرهم حـسـرات !!

فـآلُ رسـول الله نُحْفٌ جـسـومُـهم

وآل زياد حـفـل القـصـرات

بنات زياد فى القـصـور مـصـونةٌ

وآل رسـول الله فـى الـفـلَـوات

إذا وُتِروا مدُّوا إلى واتريهمُ
أكفًا عن الأوتار منقبضات

• • •

وفى شعر الشيعة إلى جانب الاحتجاج والتصوير فنون شتى :

كالمديح والرثاء والابتهال والهجاء ؛ كذلك كان شعر الشيعة - على الرغم - من الحزن المتدفق فى كيانه - جديدا قويا ، «وقد أفاد شعراءُ الشيعة الأدب بما حملوا خصومهم على مناهضتهم ، وباستمرار عهدهم إلى مدى أطول» [١].

وقد ظل الحزب الشيعى يجاهد الدولتين ، الأموية ، وكان هاشميا والعباسية ، وكان علويا .

• حزب الخوارج :

كان حزب الخوارج أشد الأحزاب بأسا وأقواها عقيدة ، فقد كان حزبا فدائيا ، فطابع نشاطه كان الجهاد فى سبيل الله والصدق فى البلاء ، وقتال الشيعة والأمويين لأنهم حكموا الرجال فى أمر الله ، ومن هنا كان المسلمون فى نظرهم كفارا ، كما عدهم المسلمون كفارا ، ويتألف الحزب من الأزد اليمانيين ؛ ومن تميم المضربين ، إلى جانب بعض الموالى . وظهر حين قبل علىّ التحكيم بينه وبين معاوية ، وسموا بالخوارج لخروجهم على علىّ وأصحابه حين قبل التحكيم . ومنهم من يشتق هذه التسمية من الخروج فى سبيل الله ، اقتباسا من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [٢] ويسمون الحرورية نسبة إلى قرية «حروراء» القريبة من الكوفة ، والتى اتخذوا منها أول الأمر مقرا لهم ، ويسمون أيضا المحكمة لقولهم ؛

---

١ - الشعر السياسى : ص ١٩٤ .
٢ - سورة النساء : الآية : ١٠٠ .

لا حكم إلا الله «كما سموا أنفسهم الشراة، أخذا من قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ [١] .

وكان الخوارج يدعون إلى الجمهورية الديمقراطية، فقد دعوا إلى توسيع دائرة الخلافة وعدم قصرها على قريش، لأنها حق الله. فينبغي أن يتولاها خير المسلمين ولو كان عبدا حبشيا، على نحو ما قال أحدهم عمران بن حطان :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا
وأولى عباد الله بالله من شكر

وقد اتسموا بالشجاعة ورسوخ العقيدة ونفاذ البصيرة وتوطين النفس على الموت واللدد والاحتجاج، فمنهم الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى به إلى قاتله وهو يقول : «وعجلت إليك رب لترضى» وقد راع عبد الملك بن مروان ما رآه عند بعضهم من قوة عارضة كادت تحيله خارجيا. تعددت فرقُهم وكثرت حتى قيل : إنها بلغت نيفا وعشرين فرقة، أبرزها : الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، والنجدات أصحاب نجدة بن عامر، والإباضية أصحاب عبد الله بن إباض التميمى، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر.

ناصب الخوارج الأمويين العداء، واستمروا يجاهدونهم طوال عصرهم، وقد دوخوا الأمويين وولاتهم وفعلوا بهم الأفاعيل، تحسب الفرد منهم فى إقباله على الموت مقبلا على أمنيته ومبتغاه، وصفهم الطرماح بن حكيم أحد زعمائهم بقوله فى قصيدة له :

عصائب من شتى يؤلف بينهم
هدى الله نزالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم
تقى الله نزالون عند التزاحف

---

١ - سورة البقرة الآية ٢٠٧ .

إذا فــــارقـــوا دنيــــاهم فـــارقـــو الأذى

وصـــاروا إلى مـــوعـــود مـــا في المصـــاحف

• • •

ولشدة بلائهم وصدق جهادهم وعمق إيمانهم بمذهبهم أن العدد القليل منهم كان يزلزل جمعا غفيرا من الأمويين، وهذا يصوره قول عيسى بن فاتك الحبطي أحدهم بقوله :

همُ الفـــئـــة القليلة غــيـــر شك

على الفـــئـــة الكثـــيـــرة ينصـــرونا [1]

وقد شاركن نساؤهم في الحروب والشجاعة، ومن أشهرهن : أم حكيم التي قالت وهي تحارب :

أحـــمل رأســـا قـــد ســئـــمت حـــمله

وقـــــد مللـت دهنـه وغــســـله

ألا فــــتى يحــــمل عنى ثقله ؟!!

و «غزالة» زوج شبيب بن يزيد الشيباني، التي كان الحجاج الثقفي قد فرّ أمامها واعتصم بقصره خوفا منها، حين آلت أن تصلي في مسجد الكوفة، وفي هذه الواقعة يقول عمران بن حطان، وقد طلبه الحجاج :

أســـد عَلَيَّ وفي الحــروب نعـــامـــة

فــتــخــاء تنفــر من صـــفـــير الصـــافــر

---

١ - هو مقتبس من قول الله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ «البقرة».

هـلا بـرزت إلـى غـــــــزالـة فـى الـوغـى
بـل كـــــان قـلـبـك فـى جـنـاحـى طـائـر
صـــدعـت غـــزالـة جـــمـــعـــه بـفـــوارس
تـركـت كـــتـــائـبـــه كــــأمـس الـدابـر

• • •

وقد كثر شعراء هذا الحزب وخطباؤه، ومن أشهرهم: قطرى بن الفجاءة، والطرماح بن حكيم، وعمران بن حطان، وأبو حمزة الشارى؛ وأشعارهم تفيض حماسة وبطولة، وتسيل بسالة وفدائية، وتصدر عن عقيدة وإيمان بالغين، تسوده النغمة الحماسية، وهى حماسة دينية، إذ كان شعرهم يمثل مذهبا جديدا أوجده الإسلام وغذته أصوله السياسية والدينية، يهتدى ببلاغة القرآن الكريم والسنة النبوية، ويقتبس من معانيهما، يصور هذه السمات قول قطرى بن الفجاءة :

أقـــول لهـــا وقـــد طارت شَـــعـــاعـــا
مـــن الأبـــطـــال ويـــحـــك لـــن تـــراعـــى
فـــإنك لـو ســـــألـت بـقـــــاء يـوم
عـلـى الأجـل الـذى لـك لـن تـطـاعـى
فـصـــبـــرا فى مـــجـــال الموت صـــبـــرا
فـــمـــا نـيـل الخـلـود بمـســـتـطـاع
ســـبـــيـل الموت غـــايـة كـل حـى
فـــداعـــيـــه لأهـل الأرض داع

ومن لا يغتبط يسأم ويهرم
وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة
إذا ما عدَّ من سقط المتاع

• • •

كما اتسم شعر الخوارج أيضا بالبعد عن المنهج التقليدى، فلم يحفل بالمقدمة الطللية أو الغزلية، ولم تشع فيه ظاهرة تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة.

ومن ثم ظهرت فى هذا الشعر الوحدة الفنية، تبعا لوحدة الموضوع والمعانى، وتشابه الصور الحماسية، إلى جانب ذيوع المقطوعات فيه، وذلك أن الشعر عند شعراء الخوارج لم يكن حرفة أو غاية، يظهر من خلالها براعة فنية، وإنما كان وسيلة لخدمة مذهبهم ومعتقداتهم، ينشد عند الحاجة إليه، يقول ابن حطان راغبا فى الاستشهاد مثلما استشهد رفيقه أبو بلال مرداس التميمى :

لقد زاد الحياة إلىّ بغضا
وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى
وأرجو الموت تحت ذُرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى
كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى
لها - والله رب البيت - قال

• • •

وقد نشط شعراء هذا الحزب فسجلوا جهاده وصوروا حياته وآماله بشعر إسلامي قوى جديد؛ ولهذه الخواص كانت أشعارهم تنفذ إلى القلوب وتختلط بالوجدان، وقد قال فيهم عبيد الله بن زياد: لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع.

حزب الزبيريين:

ينتمي الحزب الزبيرى إلى عبد الله بن الزبير بن العوام، وقد ظهر نتيجة عقد معاوية البيعة لابنه يزيد، حيث امتنع ابن الزبير عن مبايعة يزيد، ونادى بعودة الخلافة إلى الحجاز، على أن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين، وعقب وفاة معاوية اعتصم ابن الزبير بمكة، وأعلن نفسه خليفة، وأطلق على نفسه العائذ، لأنه عاذ بالبيت الحرام، وتضخمت الفكرة فى نفسه بعد موت الحسن ومقتل الحسين الذى كان يتوقع منه ذلك، فقد مرَّ بابن الزبير عند خروجه من مكة إلى العراق، وقال: قرِّب عينك يا ابن الزبير - وتمثل بقول طرفة بن العبد:

يا لك من قبرة بمعمر

خلالك الجوّ فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى !!

هذا الحسين يخرج إلى العراق، ويخليك والحجاز

ونراه حين أبى جماعة من بنى هاشم بيعته منهم محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس يحبس ابن الحنفية وجملة الجماعة الهاشمية فى سجن «عارم» فيرتفع صوت كثيِّر منددا بابن الزبير قائلا:

تخبِّر من لاقيت أنك عائذ

بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

سـمىّ النبىّ المصطفى وابن عمه

وفكاك أغلال وقاضى مغارم

• • •

ويهب رجال الشيعة بزعامة المختار الثقفى فيكسرون باب السجن ويخرجون منه بنى هاشم. وهذا يثبت أنه كان ضد الأمويين والهاشميين إلى جانب الخوارج أيضا، استولى ابن الزبير على العراق، فكان أخوه مصعب واليا عليها، حتى كانت وفاة يزيد بن معاوية فأجابته الحجاز كلها واليمن ومصر والعراق وبعض بلدان الشام، وكاد الأمر يتم له لولا تدارك الأمويين ويقظة مروان بن الحكم وانتصاره على ابن الزبير فى موقعة «مرج راهط» فاستعاد مروان على أثرها الشام ومصر، فلما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ذهب على رأس جيش إلى العراق فقتل مصعبا، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى إلى مكة فحاصر ابن الزبير فيها ثم قتله، وانتهى بقتله الحزب الزبيرى كما انتهت أيضا زعامة الحجاز.

لم يعمر هذا الحزب طويلا، فلم يظفر من يد الدهر إلا سنوات لا تربو على التسع، ولكنه كان يمثل الأرستقراطية القرشية، كما كان مصدر ذعر وقلق للأمويين.

وقصر عمر الحزب كان له أثره فى أن نظريته السياسية لم تتبلور، ولم تتضح معالمها، ومن هنا فشاعره الذى لم يظفر إلا به، وهو : عبد الله بن قيس الرقيات لم يمثل شعره نظرية حزبية، لأنها لم تكن قد اتضحت بعد، ففى شعره مدائح ضافية فى مصعب وثورة واضحة على عبد الملك وأعوانه من أهل الشام، كما فى قوله من همزيته :

حبذا العيش حين قومي جميع
لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ملك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهي فناء قريش
بيد الله عمرها والفناء
إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه
جبروت، ولا به كبرياء

إلى أن يقول :

كيف نومي على الفراش ولما
تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى
عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكمُ - بني أمية - مزو
رٌ، وأنتمُ في نفسي الأعداء
إن قتلَى بالطف قد أوجعني
كان منكم لئن قُتلتم شفاء [1]

• • •

---

١ - براها : خلا خيلها، العقيلة العذراء : السيدة الكريمة. انظر : الديوان ص ١٧٠ .

وشعره بوجه عام تغلب فيه العقيدة على الرأى، إذ يخبو فيه صوت الاحتجاج، وتسود شعره السياسى نغمة حزينة، ولعل مصدرها خوفه من شماتة الأعداء، وتتعدد الفنون وتتنوع فى شعره، الذى يتسم بالجزالة والرقة، وينبى عن خلقه النبيل وسلوكه القويم.

الحزب الأموى:

انتصرت السياسة الأموية على الشجاعة الهاشمية، فأقام الأمويون ملكهم الوراثىَّ على كره من المسلمين، وتحقق ما كان يصبو إليه أبو سفيان بن حرب، وما دعا إليه قومَهُ عقب بيعة عثمان بالخلافة، فقد قال: «يا بنى أمية. تلقفوها تلقف الكرة، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة.

وحين صارت إلى معاوية أخذ يجدّ فى إقرار الملك فى أسرته، وينحى عنه بنى هاشم، معتمدا على الترهيب والترغيب. ويجوز على الدين فى سبيل السياسة، ويحيل الخلافة الشورية إلى ملك عضوض وراثىّ، ومن أجل هذه الغاية أحيا الأمويون العصبية القبلية، وأنفقوا وقتا كثيرا ومالا وفيرا فى الحروب الأهلية والفتن الداخلية، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن السياسة الأموية لم تكن سياسة إسلامية تجمع الناس فى ذات الله على سواء، وإنما كانت سياسةَ طلاب دنيا وملك عضوض. وعصبية ذميمة، والأمويون من أجل ذلك تغاضوا عن ظلم ولاتهم وتعسفهم وإسرافهم فى سفك الدماء وإزهاق الأرواح، فاستباحوا المدينة ومكة، وقتلوا الحسين بن علىّ، ونكلوا بالأنصار فى وقعة الحرة فى عهد يزيد بن معاوية، الذى تمثل وقتئذ بقول عبد الله بن الزبعرى:

ليت أشياخى ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

فهو يتغنى بالعصبية ويجعل تنكيله بالأنصار انتقاما لقريش منهم، أو لقتلى بدر، ويشمت ويتشفى، يؤكد ذلك ويدل عليه قول محمد بن أسلم :

فإن تقتلونا يوم حرة واقم
فنحن على الإسلام أول من قتل
ونحن تركناكم ببدر أذلة
وأُبْنا بأسياف لنا منكم تفل

• • •

وينتقل الملك من البيت السفياني إلى البيت المرواني منذ تولى مروان بن الحكم، وتنشط العصبيات، ويشتد الصراع إلى أن يقضى على الدولة بنو العباس.

هذا الحزب الأموي هو حزب الساسة، فهو الحزب السائد الحاكم، ويتألف من أهل الشام وكثير من أهل البلدان الأخرى، فهو حزب السواد الأعظم، اعتمد على قوة السيف والمال والعقل في تأييد عرشه، فالناس كانوا يختلفون إليه إما طمعا في المال، أو خوفا من البأس، فقد كان له الذائدون عنه المحامون، الذين يقومون لخصومه من الأحزاب الأخرى، ويغالون في الدفاع والذود، إذ كان لهذا الحزب شعراؤه الذين يسيرون في نفس المضمار، ويصورون الخليفة الأموي في صور مقدسة تتسم بالجلال والخطر، فالأمويون خلفاء الله ورسوله في الأرض، وهم أحق الناس بالخلافة، وأولى بالطاعة، وأجدر بالنصرة، وأن قتال من يخرج عليهم واجب، فقد ساير الشعراء الملوك وأسلوبهم، إذ كانوا في جملتهم نفعيين وها هو الأحوص يقول في يزيد :

ملك تدين له الملوك مبارك
كادت لهيبته الجبال تزول

ويقول في الوليد بن عبد الملك مثبتا أن الله قد اصطفاه لخلقه، وأقامه على شئونهم :

تخـــيَّـــره رب العـــبـــاد لخلقـــه

وليـــا، وكـــان الله بالناس أعلمـــا !!

وفي الوليد يقول عديّ بن الرقاع، ساميا به إلى شأوٍ بعيد من التقديس :

صلى الذى الصلوات الطيـبـــات له

والمؤمنون إذا مـا جـمـعـوا الجـمـعـا

على الذى سـبق الأقـوام ضـاحـيـة

بالأجـر والحـمـد حتى صاحـباه معـا

هو الذى جـمع الرحـمـن أمـتـه

على يديه، وكـانت قبـله شـيـعـا

إن الولـيـد أمـيـر المؤمنين له

مُلْك عليـه أعـان الله فـارتفـعـا

• • •

وليْت الأمر وقف بالشعراء هؤلاء عند حد مديح الخلفاء والغلو فيه، ولم يتعدوهم إلى غيرهم من ولاة وقواد وما إليهما !! فقد أسرف شعراء بني أمية وغالوا في مدح هؤلاء أيضا، يصور هذا قول حارثة ابن بدر الغداني في زياد ابن أبيه :

فـأنت إمـام مـعـدلة وقـصـد

وحـزم حـين تحـضـرك الأمـور

أخوك خليفة الله ابن حرب
وأنت وزيره نعم الوزير

بأمر الله منصور معان
إذا جار الرعية لا تجور

وكنت حَيًا وجئت على زمان
خبيث ظاهر فيه شرور

فلما قام سيف الله فيهم
زياد قام أبلج مستنير

• • •

وقد كثر شعراء الأمويين كثرة مفرطة منهم: الأخطل والفرزدق وجرير وأبو العباس الأعمى والأحوص ومسكين الدارمى وعبد الله الأسدى والقطامى وأعشى تغلب وعدى بن الرقاع، وهذا الأخير هو القائل فى الوليد بن عبد الملك من قصيدة :

ولقد أراد الله إذ ولاَّكَها
من أمة إصلاحها ورشادها

أعمرت أرض المسلمين فأقبلت
وكففت عنها من يروم فسادها

وأصبت فى أرض العدوِّ مصيبة
عمت أقاصى غَورها ونجادها

ظفرا ونصرا ما تناول مثله
أحد من الخلفاء كان أرادها

• • •

وكان الشعراء يواكبون أحداث حزبهم السياسية ، من ذلك أن معاوية عندما رغب فى ولاية العهد لابنه يزيد ، وخشى ألا يمالئه الناس على ذلك ، لكثرة من يصلح لولاية العهد ويفضُل يزيد . وخاصة من أهل بيته وذوى قرباه من أمثال : سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وعبد الله بن عامر . فاحتال لولاية ابنه ، يقف بجانبه مسكين الدارمى فيقول :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر
ومروان ؟ أم ماذا يقول سعيد ؟ !
بنى خلفاء الله مهلا فإنما
يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربىّ خلاه ربه
فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجدّ صاعد
لكل أناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل
وفود تساميها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليا
تشيد أطناب له وعمود

فلما أتمّ إنشاده قال له معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله .

وكان استلحاق معاوية لزياد سببا فى قول كثير من الشعر ، يجنح معظمه إلى التنديد ، من ذلك رسالة ابن مفرّغ الحميرىّ إلى معاوية :

ألا أبلغ معاوية بن حرب
مغلغلةً عن الرجل اليمانى

أتغضب أن يقال أبوك عَفٌ

وترضى أن يقال أبوك زانى؟!

وأشهد أنَّ رحْمك من زياد

كرِحْم الفيل من ولد الأتان !!

ولما كان عبد الملك بن مروان يتردد فى الخروج لمحاربة ابن الزبير يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فدخل عليه أعشى ربيعة فدفعه إلى الخروج بقوله :

آل الزبير من الخلافة كالتى

عجل النتاج بحملها فأحالها

أو كالضعاف من الحمولة حملت

ما لا تطيق فضيعت أحمالها

قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ

كم للغواة أطلتمُ إمهالها

إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ

ما زلتمُ أركانها وثمالها

أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا

فانهض بيُمْنك فافتح أقفالها

ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يعزل أخاه عبد الغزيز عن ولاية العهد، ويحوِّلها إلى ابنه - أيوب - أنشد جرير قصيدة جاء فيها :

إن الإمام الذى تُرْجَى نوافله

بعد الإمام ولىَّ العهد أيوب

• • •

وشعراء الأمويين على كثرتهم المفرطة لم يفنوا فى مذهب الأمويين، ولم نعثر فى شعرهم - من الناحية الفنية - على العقيدة الحارة، كتلك التى وقفنا عليها عند الشيعة والخوارج، فما شعراء الأمويين إلا شخوص فنية لم ترتفع إلى مستوى العقيدة تتفاوت فى الحظ فى درجات المديح.

ولكننا إحقاقا للحق وإنصافا لدولة بنى أمية نذكر بكل فخر وإعزاز هذه السلسلة من الفتوح الإسلامية التى أتمتها حتى وصلت إلى بلاد الأندلس غربا، وإلى أسوار القسطنطينية شمالا، ولم تفتنها مباهج وحضارات البلاد المفتوحة كما فتنت - من بعدهم - العباسيين.

وقد اتضح الآن أن الحياة السياسية فى العصر الأموى - بكل أبعادها - قد أثرت فى الشعر أيما تأثير، إذ كانت رافدا حيويا فى تطور الشعر وجدته، وخلق فنون جديدة فيه تحت تأثير السياسة.

• • •

ملامح الحياة الثقافية
«مراكز العلم ومجالس الأدب»
فى ظلال الأمويين

فاضت الدولة الأموية بنشاط علمي واسع إلى جانب نشاط أدبى أوسع. فقد تفتحت عيون العرب على نهضة فكرية وحضارية فى الأمم المفتوحة، وما أن شافتها عيونهم حتى أقبلوا عليها فى نهم يعلّون منها وينهلون، فتطورت العقلية العربية، وانتقلت من طور البداوة إلى طور الحضارة، وظهر أثر هذا التطور والتحضر فى كثير من مناحى الحياة العلمية والأدبية، جدّت فى الدولة الأموية إذن عوامل تدعو إلى العلم وتحب عليه، منها :

هذه الحضارة التى بدأت تظل العرب فى عصر بنى أمية، والحضارة تستلزم العلم إذ لا تنهض إلا به، فهما صنوان لا يفترقان.

اختلاطهم بالأمم المتحضرة ووقوفهم على ثقافاتها وفلسفاتها.

حاجتهم إلى هذه العلوم التى تتصل بالملك والسياسة، ورغبتهم الملحة فى الارتقاء بدولتهم إلى أسمى درجات الرقىّ والثقافة والحضارة.

فضلا عن انتشار الكتابة بين العَرب فى هذا العصر.

والواقع أن الثقافة العربية فى العصر الأموى قد استمدت حياتها من روافد ثلاثة : رافد جاهلى ورافد إسلامى ورافد أجنبى، فأما الجاهلى : فيتمثل فى الأدب الجاهلى - الذى أحياه الأمويون إحياء للعصبية القبلية وبعثا لها - ولعل هذه العصبية هى التى دفعت إلى إحيائه إلى جانب إشباع حاستهم الأدبية - شعرا وأياما وأنسابا وتقاليد - وأما الرافد الإسلامى : فيتمثل فى القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ وسيرته العطرة وغزواته. ثم الفتوح الإسلامية والحروب الأهلية - كالتى قامت بين علىّ رضى الله عنه وخصومه.

التقى بهذين الرافدين رافد آخر أجنبي، وقف العرب عليه نتيجة اختلاطهم بالأمم الأجنبية، ويتمثل هذا الرافد في المعارف التطبيقية، كتخطيط المدن وعمارة المباني وشق الترع، وضبط الدواوين وطرق جباية الخراج، وإنشاء الأساطيل الحربية، والعلوم النظرية، كالثقافة الهيلينية، والتي هي مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة، والتي كانت تعنى بها مدرسة جند يسابور وغيرها من المدارس؛ وكانت جلّ عنايتها بمنطق أرسطاليس وفلسفة اليونان، بالإضافة إلى علوم الطب والكيمياء والنجوم وغيرها. وهذا يعني أن الفكر العربي في العصر الأموي قد ارتوى من ثقافات متنوعة، ودعم بمواد ثقافية كثيرة.

برزت أثار هذه الثقافة في ازدهار علوم الدين من تفسير القرآن الكريم، وما يتصل به من قراءات، وحديث، وعلوم فقه، وتبرز آثارها في المناظرات والمجادلات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغيرهما، كما تلوح أثارها في شعر الشعراء بل في أدب العصر.

لقد انبثقت - إزاء هذا التطور - حركات تعليمية كثيرة، بدأت بظهور طبقة من المعلمين يعلمون الصبية والناشئة القرآن الكريم والشعر العربي وما يتصل بهما، وقد نبغ من هؤلاء المعلمين جماعة فيما بعد، ونبه شأنهم منهم الفقهاء والشعراء والقواد والولاة، فالحجاج بن يوسف الثقفي كان هو وأبوه معلمَيْن بالطائف [1]، والكميت بن زيد كان معلما بالكوفة، وعطاء بن أبي رباح كان معلما بمكة، والضحاك ابن مزاحم في خراسان، والطرماح بن حكيم

---

١ - إلى هذا يشير قول هاجيه:

أينسى كليب زمان الهزال ∴ وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر ∴ وآخر كالقمر الأزهر !!

في الرىّ، وكان من هؤلاء المعلمين معلمون لأولاد الخاصة، من الخلفاء والأمراء والولاة مثل: الإمام الشَّعْبى، وعبد الصمد بن عبد الأعلى.

ثم نشطت الحركة العلمية وكثرت مراكز الثقافة ومجامع العلم، وبرز من بينها: المدينة ومكة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، وقد قيض الله لكل مركز من هذه المراكز عالما أو علماء حملوا مشاعل العلم، وتركوا من بعدهم تلاميذ، وقفوا على أثارهم واصطبغوا بصبغتهم، فكان فى المدينة تلميذ زيد ابن ثابت - الذى كانت له الرياسة فى القضاء والفتيا والقراءة والفرائض، والذى كان من فضله أن يأخذ ابن عباس بركابه - سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله ابن عمر، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة والزهرى وغيرهم. وفى مكة: عبد الله بن عباس - حبر الأمة وفقيهها وأعلم الناس بتأويل القرآن، وتلاميذه عطاء بن أبى رباح، ومجاهد بن جبير، وطاوس بن كيسان، وسفيان بن عيينة.

وفى الكوفة: تلاميذ عبد الله بن مسعود، وعلى رأسهم: شريح القاضى، والشَّعْبى، وسعيد بن جبير والأشتر النَّخَعِىّ.

وفى البصرة: أبو موسى الأشعرى، وأنس بن مالك، والحسن البصرى، وابن سيرين.

وفى دمشق: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة، والأوزاعى.

وفى مصر: عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن لهيعة، ويزيد بن حبيب، والليثى بن سعد، والصابحى.

وكانت جل عناية هؤلاء العلماء - من عرب وموال - بعلوم الدين

وتدوينها، والتاريخ وقد ظهرت إلى جانب هذه العناية عناية بعلوم النحو واللغة في الكوفة والبصرة، ومن أعلامهما: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والأصمعي، والكسائي، ومن متقدمي النحاة: عيسى بن عمر، وعنبسة الفيل، ويونس بن حبيب، وعبد الله الحضرمي، الذى وضع كتابا فى الهمز، وكان بين الكوفة والبصرة تنافس فى علوم اللغة والأدب وعلم الكلام. وقد كانت هذه المجامع العلمية تتبدى فى حلقات الدروس فى مساجد الأمصار وفناء الكعبة ومسجد رسول الله فى المدينة.

كما نجد خالد بن يزيد بن معاوية يأخذ صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحيي الشام، فقد كان - كما يصفه الجاحظ - خطيبا شاعرا كثير الأدب حكيما، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة. وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات [١].

ومما يدل أيضا على عناية العرب فى هذا العصر بالترجمة: أن عمر ابن عبد العزيز أمر ماسرجويه البصرى أن يترجم من السريانية إلى العربية كتابا فى الطب يسمى: كنا ش: للقس أهرُن بن أعين؛ وما يروى من أن سالما مولى هشام ابن عبد الملك قد ترجم بعض رسائل أرسطو؛ وكان سالم يعرف اليونانية، وفى هشام بن عبد الملك قد تُرْجِم له كتابٌ عن الفارسية يتحدث عن تاريخ الدولة الساسانية ونظمها السياسية.

كل هذا يثبت أن الحياة العلمية بكل صورها قد أخذت فى النمو والنشاط فى العصر الأموى تبعا لتطور حياة العرب العقلية، وأن هذه الحياة كانت نواة للنهضة العلمية الرائعة التى بسقت وآتت أطيب الثمار فى العصر العباسى.

١- انظر: رسائل الجاحظ ص ٩٣.

«وجملة القول في العصر الأموى أن كان فيه نضج الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية» [١].

أما الحياة الأدبية فقد كان حظها أوفر من سابقتها في ظل بني أمية، إذ راجت أسواق الأدب وكثرت مجالسه وحفلت مجامعه، وعني به عناية فائقة لم يسبق لها مثيل، وما ذلك إلا لأن الخلفاء والأمراء كانوا يغدقون من أموالهم على الأدباء إغداقا لا حدود له، وأنهم كانوا يعقدون المجالس الأدبية ويولونها رعاية واهتماما موفورين، وكانوا يطلقون الحريات للشعراء؛ ويشجعونهم ويحيطونهم برعايتهم، ويجزلون لهم العطاء. وكانت دور الخلفاء والولاة والمساجد وكُناسة الكوفة، ومِرْبد البصرة تزدان بهذه المجالس، وترعى هذه المجامع الأدبية؛ وهذا يدل على غرام بالأدب ما سمعنا بمثله في الناس..

من ذلك أن عبد الملك قد أعطى أعرابيا وصف ناقته مائة بعير، وأعطى الوليد امرأة وصفت الغيم بعد المَحْل مائة دينار، وأعطى سليمان فرسه وحمولته وزينته لرجل وصف الفرس. والواقع أن النصيب الأوفى من عناية الخلفاء وعطاياهم كان للشعراء، لأنهم الذين يؤججون نار العصبية، ويجمعون قلوب العرب حول الأمويين، وينضوى تحت هذا غرامهم - أى الأمويين - بشعر الجاهلية وأخبارها، ثم رغبتهم في المدح والإشادة بالذكر، ولهذا جعلوا للشعراء نصيبا مفروضا في بيت المال، علاوة على الهبات والعطايا والصلات.

ومن ثَمَّ تسابق الشعراء في التقرب والزلفى إليهم، وتنافسوا في الوقوف بأبوابهم طمعا في مالهم ورغبة في جاههم.

ولا غرابة فالقوم عرب يهزهم البيان، ويسكرهم الشعر ويطربهم الأدب، ومنهم من كان يتذوق الشعر ويحكم عليه وينقده كعبد الملك بن مروان، ولهذا

---

١ - تاريخ الأدب العربي: للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٢٠٧، الطبعة الرابعة والعشرون.

كان الشعراء يعرضون أشعارهم على أولئك الذين لهم بصر فى نقد الشعراء، ليروا أثره فى النفوس قبل أن يقدموا به على ممدوحيهم.

بيْد أن من الشعراء من كان يزرى بالمتكسِّبين بالشعر، كعمران بن حطان، الذى آلى على نفسه ألا يكذب فى شعره، والذى اندفع بهذا التوجه إلى الفرزدق قائلا :

أيهـــا المادح العـــبـــاد ليُـــعطى
إن لله مـــا بـأيدى العـــبـــاد
فـــاســـأل الله مـــا طلبت إليـــهم
وارْجُ فـــضل المقـــسّم العـــوّاد
لا تقل للجـــواد مـــا ليس فـــيـــه
وتـسَمِّ البـــخـــيل باسم الجـــواد

وكان الخلفاء والأمراء والقادة والولاة يحثون الناس على طلب الأدب والشعر، حتى إن عبد الملك بن مروان يقول لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا. ويقول شبيب ابن شيبة : اطلبوا الأدب فإنه مادة العقل ودليل المروءة.

كما أن القبائل كانت تتعصب لشاعرها وتنصره وتحتج له، فيكثر تبعا لذلك الجدال واللجاجة، فيروج الأدب والشعر نتيجة ذلك رواجا عظيما.

لقد كانت مجالس الخلفاء والولاة منتديات أدبية يجتمع فيها الأدباء النابهون والشعراء النابغون والعلماء الأفذاذ، جلس عبد الملك بن مروان ذات مرة فقال لجلسائه : ليقل كل منكم أحسن شعر سمعه، فذكروا لامرئ القيس وطرفة والأعشى وأكثروا، فقال : أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذى رحم قلّمت أظفار ضِغْنه

بحلمى عنه وهو ليس له حلم

إذا سمته وصل القرابة سامنى

قطيعتها، تلك السفاهة والظلم

وأسعى لكى أبنى ويهدم صالحى

وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

يحاول رغمى لا يحاول غيره

وكالموت عندى أن يحلّ به رغم

فما زلت فى لينى له وتعطفى

عليه كما تحنو على الولد الأم

لأستل منه الضِّغن حتى سللته

وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وكان بصيرا بخير الشعر، قال لمؤدب ولده: إذا رويتهم شعرا فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى :

يَبِين الجار حين يَبِين عنى

ولم تأنس إلى كلاب جارى

وتظعن جارتى من جنب بيتى

ولم تستر بستر من جدارى

وتأمن أن أطالع حين آتى

عليها وهى واضعة الخمار

كـــــذلك هَدْيُ آبائى قـــــديمَـــــا

تـوارثـه الـنِّجـــــار عـن الـنجـــــار

• • •

وكان عبد الملك يتمتع بصفاء الذوق وقوة الملاحظة، ودقة النقد وصدق التمييز، دخل عليه ابن قيس الرقيات - وكان قد أمنه بعد خروجه عليه مع ابن الزبير - فمدحه بقوله :

إن الأغـــــر الـذى أبـوه أبـو الـعـــــا

صى عـليـــــه الوقـــــار والحـــــجب

يأتـلق التـــــاج فـــــوق مـــــفـــــرقـــــه

عـلى جـــــبـــــين كـــــأنـه الـذهب

فقال عبد الملك : يابن قيس، تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

مـلـكه مـلـك عـــــزة لـيس فـــــيـــــه

جـــــبـــــروت منـه ولا كـــــبـــــرياء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وأعطيتنى مالاً فخرَ فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة .

واجتمع عنده جرير والفرزدق والأخطل، فأحضر بين يديه كيسا فيه خمسمائة دينار، ثم قال : ليقلْ كل منكم بيتا فى مدح نفسه . فأيكم غلب فله الكيس، فبدأ الفرزدق فقال :

أنا القطران والشعراءُ جربى

وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل :

فإن تك زقَ زاملة فإنى

أنا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير :

أنا الموت الذى آتى عليكم

فليس لهارب منى نجاء !!

فقالعبد الملك : فلعمرى إن الموت يأتى على كل شئ : وقضى لجرير .

وأخذ الفرزدق هذا المعنى وقال فى مجلس ضمه وجريرا عند عبد الملك ، معتقدا أنه لن يستطيع النقض أو الزيادة :

فإنى أنا الموت الذى هو واقع

بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله؟!!

وما أحد يا ابن الأتان بوائل

من الموت إن الموت لا شك نائله

فأطرق جرير ثم قال :

أنا البدر يَغْشَى نورَ عينيك فالتمس

بكفيك يا ابن القيْن هل أنت نائله؟!!

أنا الدهر يَفْنَى الموتُ والدهرُ خالد

فجئنى بمثل الدهر شيئا يطاوله !!

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس .

ضم مجلس عبد الملك جماعة من خواصه وسمّاره، وكلهم من أهل الأدب، لأنه كما علمت كان يتجنب غيرهم فى مجالسه. فقال: «أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه، وله علىّ ما يتمنى، فقام إليه سُوَيْد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: قل ما عندك، فقال:

«أنف. بطن. ترقوة. ثغر. جمجمة. حلق. خدّ. دماغ. ذكر. رقبة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غُدْبة [١]. فم. قفا. كف. لسان. منخر. نُغْنُغ [٢] هامة. وجه. يد. فهذه حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين».

فقام بعض الجالسين وقال: أنا أقولها فى جسد الإنسان ثلاثا. فقال عبد الملك: قل ولك ما تتمنى، فقال:

«أنف. أذن. أسنان. بطن. بصر. بز. ترقوة. تمرة. تينة [٣] - ثغر. ثنايا. ثدى - جمجمة. جنب. جبهة - حلق. حنك. حاجب. خد. خصر. خاصرة - دبر. دماغ. دُرْدُر [٤] - ذكر. ذقن. ذراع. رقبة. رأس. ركبة - زند. زردمة [٥]. زغب [٦] - ساق. سرة. سبابة - شفة. شعر. شارب - صدر. صدغ. صلعة - ضلع. ضفيرة. ضرس - طحال. طُرَّة [٧]. طرف - ظهر. ظفر. ظَلْم [٨] - عين.

---

١ - الغدبة: لحمة غليظة تحت لهارم الإنسان.

٢ - النغنغ: اللحمة فى الحلق عند اللهازم.

٣ - التينة: الدبر.

٤ - الدردر: مغارز الأسنان فى الصبى.

٥ - الزردمة: الغلصمة، أو موضع الابتلاع.

٦ - الزغب: صغار الشعر.

٧ - الطرة: الناصية.

٨ - الظلم: بريق الأسنان.

عنق . عاتِق - غُدْبة . غلصمة . غنة - فم . فك . فؤاد - قلب . قدم . قفا - كتف . كف . كعب - لسان . لحية . لوح - مرفق . منكب . منخِر - نُغْنُغ [١] نغنوغ . ناب . نَنّ [٢] . هامة . هيف . هيئة . - وجه . وجنة . ورك - يمين . يسار . يافوخ . ثم نهض مسرعا وقبل الأرض بين يدى عبد الملك، فقال أعطوه ما يتمنى [٣].

ولم يكن عبد الملك فى مجالسه فردا بين خلفاء بنى أمية، إنما كان الصورة المثلى لهم.

كذلك فاضت مراكز الثقافة وبيئات الأدب والشعر بالمجالس الأدبية حيث كان للشعراء فيها مجالس، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه، ومن خير ما يصور هذه المجالس وما يدور فيها مجلس ضمّ عمر بن أبى ربيعة والأحوص ونصيبا وكثير عزة، كان هذا المجلس بالمدينة، فقد قدم إليها عمر فاجتمع به ثلاثتهم، فتحدثوا مليا وأفاضوا فى ذكر الشعراء، فأقبل كثير على عمر. فقال له: إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك: أخبرنى يا هذا عن قولك:

ثم اسْبَطَرَّت تشتد فى أثرى
تسأل أهل الطواف عن عمر [٤]

أتراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر؟ إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع. هلا قلت كما قال الأحوص :

---

١ - الفرج.

٢ - الشعر الضعيف.

٣ - راجع كتاب الأدب العربى وتاريخه فى عصر صدر الإسلام والدولة الأموية: للأستاذ محمود مصطفى ج ١ ص ١٨٨، ١٨٩ الطبعة الثانية.

٤ - اسبطرت: أسرعت. تشتد: تعدو.

أدور ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى
وإن لم يزر لابد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر
وإني إلى معروفها لفقير

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء، فأقبل كثير على الأحوص وقال له: لقد أبطل آخرك أولك، أخبرني عن قولك :

فإن تصلي أصلك وإن تبيني
بهجر بعد وصلك لا أبالي

أما والله لو كنت حرا لباليت ولو كسر أنفك. هلا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب
وقل إن تملينا فما ملك القلب

فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة، فلما رأى ذلك التفت إليه كثير وقال: وأنت يا بن السوداء أخبرني عن قولك :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت
فواكبدي من ذا يهيم بها بعدي [1]

---

١ - أنشد هذا البيت في مجلس عبد الملك بن مروان فنقده وقال: الأوفق أن يقول :
أهيم بدعد ما حييت فإن أمت
فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

أهمك - ويحك - من يهيم بها بعدك ؟

فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع : أخبرنى عن تخيرك لنفسك ولمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة
بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب

كلانا به عرّ فمن يرنا يقل
على حسنها جرباء تعْدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله
علينا فما ننفك نرمى ونضرب

وددت وبيت الله أنك بكرة
هجان وأنى مصعب ثم نهرب

نكون بعيرىْ ذى غنى فيضيعنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب [1]

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ، فأى مكروه لم تتمَن لها ولنفسك ؟ !.

وهذه المجالس الأدبية قد شاع أمرها وانتشر ذكرها، وهام بها كل الناس فى هذا العصر، وبلغ من حبهم لها ولما يدور فيها من مطارحات شعرية أن كانت المساجد مواضع لمدارسة الشعر، حيث كانت تعقد المجالس الأدبية فى المساجد، بل فى المسجد الحرام نفسه، فقد روى الأصفهانى فى أغانيه والمبرد فى كامله : أن

---

١ - نعزب : نبعد فى المرعى. عر : جرب. بكرة : ناقة فتية. هجان : بيضاء اللون كريمة. المصعب : الفحل الذى يترك فلا يركب.

ابن عباس كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه، وبينما هم كذلك إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبغين موردين، حتى دخل فجلس، فأقبل عليع ابن عباس فقال : أنشدنا، فأنشده، راثيته المشهورة والتى تحمل فى تضاعيفها غزلا قصصيا رائعا - والتى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غـــــاد فـــــمـــــبكـر

غـــداة غـــد أم رائح فـــمـــهـــجـــر ؟!

حتى بلغ آخرها، فأقبل ابن الأزرق على ابن عباس، وقال له : يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد، نسألك عن الحلال والحرام، فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجـــلا أمـــا إذا الشـــمس عـــارضت

فـــيـــخـــزى وأمـــا بالعـــشى فـــيـــخـــسـر

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال : إنما قال :

رأت رجـــلا أمـــا إذا الشـــمس عـــارضت

فـــيـــضـــحى وأمـــا بالعـــشىّ فـــيـــخـــصـر [١]

فقال نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت، قال : أجل بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت، قال : فإنى أشاء، فأنشده القصيدة كلها.

كذلك ظهرت فى عصر بنى أمية أسواق أدبية تقام فيها حلقات الشعر والمفاخرة والرواية، على غرار الأسواق فى الجاهلية، كسوق المِرْبَد فى البصرة، وسوق الكُناسة فى الكوفة [٢]، وهذه الأسواق تعد من المجامع الحافلة والمشاهد

---

١ - يضحى : تصيبه الشمس، ويخصر : يصيبه الخصر بالتحريك وهو البرد.

٢ - المِرْبَد : على وزن منبر ومقوَدّ من ربد بالمكان إذا أقام فيه، وفى شعر الفرزدق :

الجامعة، حيث كان العرب من الأقطار يجتمعون فيها ويتناشدون الأشعار، ويبيعون ويشترون، وكانت هذه الأسوق تزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون، ويُعلي كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية.

وكان كل شاعر يقصد السوق ومعه رواته وأنصاره يذبون عنه ويناضلون دونه، فكانوا يحيون فيها حياة تشبه حياة الجاهلية، ومن ثم فقد خلفت كثيرا من أطايب الأدب، والرائع من نقائض جرير والفرزدق والأخطل، حيث قبلت فيها وصدرت عما كان بينهم من خصومة ومنافرة.

وكان لكل شاعر من الشعراء الفحول حلْقة خاصة ينشد فيها شعره، وحوله الناس يسمعون منه، أشهرها في المربَد حلقة الفرزدق، وراعي الإبل؛ لقد كانت لهذه الأسواق آثار كبيرة في الأدب بعامة والشعر بخاصة في العصر الأموي، الذى نشطت فيه الحياة الثقافية - علمية وأدبية - نشاطا ملحوظا - وعني فيه بالشعر عناية خاصة، فأثمر أطيب الثمار، وجادت قرائح الشعراء بالغرر والدرر، في فنون متنوعة وألحان رائعة.

والحق أن هذا العصر قد شهد حركة عقلية ضخمة غذتها روافد متنوعة وثقافات عربية جاهلية وإسلامية، وأخرى أجنبية، حتى إن من العلوم ما خلق فيه جديدا كعلم النحو مثلا، وراجت فيه الحياة الأدبية وتطورت تطورا ملحوظا

= عشيَّة سال المربدان كلاهما

عجاجة موت بالسيوف الصوارم

ثنّاه مجازا لما يتصل به من مجاورة، وقد يجوز أن يكون سمّي كل واحد من جانبيه مربداً، كما يقال: الأحوصان وهما الأحوص وعوف بين الأحوص، ومربد الإبل محبسها، ومربد التمر: الموْضع الذى يجفف فيه التمر.

تبعا لتطور الحياة؛ وأخيرا فالثقافة فى هذا العصر كانت شيئا طاغيا، تنفعل به النفوس، وتدور حوله الأحاديث، وكانت توجد فى كل مكان، ذلك لأن مجتمعه قد مزج بين العقلية والحضارة العربية عقلية وحضارة الأمم المفتوحة، استجابة منه لنداء التطور.

• • •

سيادة اللغة
ونهوضها بمظاهر الحياة

أحرز المسلمون الفاتحون انتصارات عظيمة فى كثير من الأقطار وقد كثرت الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى . حتى وصلت إلى الهند والصين شرقا ، وبلاد الأندلس غربا ، والسودان جنوبا ، وسيبريا شمالا ، واستولت جيوش المسلمين على جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أساطيلهم تجوبه وتمخر عبابه ، وهذه الانتصارات قد صاحبتها منذ الفتح الإسلامى انتصارات أخرى لغوية ، فقد انطلقت اللغة العربية من جزيرتها تواكب الفتوحات الإسلامية ، وتشق طريقها بنجاح فى مجتمعات الأقطار التى دانت لسلطان المسلمين وأذعنت لدينهم ، فانتشرت بين ربوعها ، بعد أن تصارعت مع لغاتها فانتصرت عليها وصرعتها ، بدليل ذيوعها وانتشارها فى هذه الأقطار : فكثر - إزاء هذا - عدد المتكلمين بها .

فقد أخذت هذه اللغات المختلفة ، كالفارسية فى إيران وخراسان ، والفارسية والنبطية فى العراق ، والآرامية والسريانية فى الشام ، والقبطية أو اليونانية فى مصر ، والبربرية فى المغرب ، وهكذا ، أخذت هذه اللغات تنكمش وتنحسر عن أماكنها من ألسنة أصحابها لتحل محلها العربية وتسود .

وهذا راجع إلى :

الصلة الوثيقة بين الإسلام - كدين سرَى فى هذه المجتمعات مسرى النور الوهاج فى الظلام الدامسَ واللغة العربية ، تلك اللغة التى نزل بها القرآن

الكريم الدستور الخالد، فهو - كما يحدث عن نفسه - ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ «الشعراء».

فكان ازاما على هؤلاء الأعاجم أن يتعلموا لغة هذا الدين ليتسنى لهم فهمه وأداء شعائره.

كذلك قضت طبيعة الانتصار في كل زمان ومكان أن يساير المهزوم المنتصر في لغته، ونتيجة هذا تعلم الأعاجم لغة العرب تقربا إليهم وزلفى. ورغبة في التفاهم مع حكامهم وولاتهم من العرب، والتخاطب مع من يعايشونهم ويمتزجون بهم منهم.

وهذا ما يؤكده قول ابن خلدون: «لما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب؛ وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأقطار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم.

لم يقف الأمر بهؤلاء الأعاجم عند حد التفاهم والتخاطب باللغة بل تعداه، فإن منهم - وما أكثرهم - من حذق هذه اللغة وأتقنها وبرز فيها، ودرس آدابها ونظم الشعر، وتفقه في شتى العلوم، لينعم بالعطاء الجزل كما ينعم الشعراء والعلماء.

إلى جانب أن الطمع في منصب من مناصب الدولة قد حملهم على التألق والتبريز في لغتها العربية.

والتاريخ شاهد على أن لغة من اللغات لم تحظ بمثل هذا النجاح والانتصار اللذين حظيت بهما اللغة العربية، وسلطانها قد بقى في بعض الأماكن على

الرغم من انحسار سلطان المسلمين عنها، لبقاء الدين الإسلامي فيها، فهي - ولا شك - وعاءله ومقيمة حيث أقام.

بيد أن العربية في صراعها مع لغات الأقاليم المفتوحة والذى انتصرت فيه انتصارا ساحقا قد لحقها شئ من آثار هذا الصراع ؛ فليس معنى هذا الانتصار القضاء المبرم بين عشية وضحاها على لغات هذه الأقطار المحلية، فقد وجدنا أن العربية بسبب الامتزاج بين العرب والأعاجم - تأثرت بألفاظ من هذه اللغات فاستعارتها منها، وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة، وكان العرب يُعرِّبونها أو يبقون عليها في صورتها الأصلية، من الألفاظ المصرية : البلور واللوز والسندس والاستبرق، والبريد والدفتر ؛ وهذا قد مكن العربية من مواكبة هذه الحياة الجديدة بكل ما اتسمت به من حضارة ومدنية ؛ تلك الحياة التى بدأ العرب يقفون عليها ويحيونها منذ القرن الأول الهجرى فقد نقل الإسلام العرب نقلة كبيرة، وكان سببا في خروج العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة، فجددت اللغة بذلك شبابها وزادت حيويتها، وأكدت سيادتها.

وكان حظ الفارسية من هذا أوفر ؛ فقد تأثرت بها العربية بعض التأثر، والمطلع على «كتاب البيان والتبيين» يجد أن الجاحظ يذكر كلمات فارسية جرت على ألسنة الكوفة - ولعل هذا بسبب من عاشوا معهم من الفرس - ومنها «بال» للمسحاة، «والباذروج» للبقلة الحمقاء، و «وازار» للسوق. ويذكر أن الفارسية كانت شائعة في البصرة، مما يدل على هذا ما يروى من أن يزيد بن مفرغ الحميرى حين هجا عبيد الله بن زياد، سقاه نبيذا وحمله على دابة في ثياب ممزقة مقرونا إلى هرّة وخنزير، وأمر أن يطاف به في شوارع البصرة، فتجمع حوله الصغار يسألونه بالفارسية، إين جيست؟ - أى ما هذا؟ - فيجيبهم بلسانهم :

آب است نبيذا ست .·. عصارات زبيب است

سميه روسبى است

وآب : ماء، وسمية : هى أم زياد بن أبيه، وروسبى : الخنزيرة.

أى هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية البغى.

كما يذكر أن تأثير الفارسية قد دخل الجزيرة العربية، ففى المدينة مثلا يسمون البطيخ «الخربز» والسميط «الرزدق» إلى غير هذه من الألفاظ [1].

ونجد مثل هذه الألفاظ فى الشعر أيضا، فبعض الشعراء العرب كان يعمد استخدام بعض ألفاظ فارسية فى شعره بغية التملح والتظرف، فهذا الفرزدق يستعمل كلمة «البيذق والبياذق» وهى معروفة فى لعبة الشطرنج، فالبيذق حين يتقدم إلى آخر اللوحة يصبح وزيرا، وهذا يؤكد إلمام الفرزدق بهذه اللعبة، إذ يخاطب جريرا قائلا :

ونحن إذا عدت تميم قديمها

مكان النواصى من وجوه السوابق

منعتك ميراث الملوك وتاجهم

وأنت لدرعى بيذق فى البياذق

فيجعل جريرا «بيذقا» غير متقدم، ولكن جريرا يرد عليه بنقيضة يستخدم فيها كلمة الفرزدق إلى جانب كلمة «الروذق «الفارسية» والتى تعنى الحمل المنتوف وبره بعد سلقه، قائلا :

لا خير فى غضب الفرزدق بعد ما

سلخوا عجانك سلخ جلد الروذق

---

١ - انظر البيان والتبيين: ج ١ ص ١٩ وما بعدها.

ســـبــعــون والوصـــفــاء تمهـــر بناتنـا

إذ مـــهـــر جـــعـــثن مـــثل حـــر البـــيـــذق [1]

وجعثن : «هى أخت الفرزدق».

والمقصود بمثل هذا الاستعمال التملح والتظرف، فالنقائض كانت لونا من ألوان التسلية والترفيه وقطع أوقات الفراغ أحيانا.

وهذا التأثر لا يعدّ شيئا إذا قورن بالانتصار الساحق الذى حققته اللغة العربية على هذه اللغات، وإن كان قد أفادها فجددت - كما قلت - شبابها وحيوتها وأكدت سيادتها واتسعت لألوان الحضارة.

لقد استجابت اللغة العربية لما استجدّ فى العصر الأموى من مظاهر، ونهضت بما وكل إليها خير نهوض، فوفت بمقتضيات الدين والملك والسياسة.

فالأمويون الذين جعلوا الخلافة ملكا عضودا قد استكثروا من الحجاب والحراس، وأنشأوا الأساطيل البحرية، وأتموا العدة للجيوش، وخملوا عن الفرس الموسيقى العسكرية، وأقاموا القلاع واتخذوا البريد، وسكوا النقود، وأنشأوا ديوان الخاتم وديوان الرسائل وديوان الجند، وشيدوا القصور الباذخة، إلى غير هذه من ألوان الحياة الجديدة على العرب، وجدنا أن اللغة العربية لم تعجز عن احتوائها والنهوض بها، فقد نهضت بكل ذلك دون ما فتور أو وناة، سواء بما فيها من ثروة لغوية ضخمة، أو بما أتت عليه بالتعريب من ألفاظ أعجمية، فواكبت اللغة هذه الحياة بكل مظاهرها وأبعادها، فوضعت لهذه المسميات الجديدة أسماء ومصطلحات، أثبتت قدرتها وتفوقها.

---

١ - انظر نقائض جرير والفرزدق: ط «بيفن» ص ٧٨٧، ٨٤٥.

كما نهضت اللغة بمقتضيات الملك والسلطان خير نهوض حين حول الأمويون دواوين الخراج فى شتى الأقاليم الإسلامية إلى اللغة العربية، وكانت منذ عهد الخلفاء الراشدين تكتب بلغة الإقليم الذى هى فيه، فقد كانت فى العراق تكتب بالفارسية، وفى بلاد الشام بالرومية، وفى مصر بالقبطية؛ وظل الحال كذلك إلى أن كانت أيام عبد الملك بن مروان، وفيها حولت دواوين العراق من الفارسية إلى العربية فى عهد الحجاج بن يوسف على يد صالح بن عبد الرحمن السجستانى مولى بنى تميم - كما تؤكد معظم المصادر - وهذا التحول قد أفزع الفرس وأقض مضاجعهم، لأنهم خافوا انقطاع أرزاقهم، فبذلوا لصالح مائتى ألف درهم على أن يحولوا بينه وبين ما أقدم عليه، ولكنه رفض وأبى إلا نقل الدواوين إلى العربية، وإن بذلوا له أموال الأرض. فقال كتاب الفرس: قطع الله أصلك كما قطعت أصل الفارسية.

وفى عهد عبد الملك أيضا تحولت دواوين الشام من الرومية إلى العربية بعد أن رأى من كاتبه فيها وهو سرجون بن منصور إدلالا وخيلاء فى صنعته، وتراخيا فيما يكلف به أحيانا. وقام بهذه المهمة فى الشام سليمان بن مسرور، وعندئذ قال سرجون لمن معه من كتاب الروم: اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة، فقد قطعها الله عنكم.

وفى عهد الوليد بن عبد الملك حول ديوان مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان أميرها من القبطية إلى العربية، وصرف عن ديوان مصر كاتب القبطية أنتناش، وأقام مكانه ابن يربوع الفزارى. وقد نهضت العربية بهذا خير نهوض.

وهذا مما يسجل بالفخر والإكبار للأمويين، فقد أصبحت الدولة الإسلامية بهذا العمل الجليل عربية السُّدَى واللُّحْمة والوجه واللسان.

كذلك نهضت اللغة دون ما تقصير أو ونى بالنهضة العلمية والفكرية

والأدبية التى بدأت فى التألق فى عصر بنى أمية، فقد قامت إلى جانب العلماء والأدباء لغة مَرِنة واسعة الجوانب مشرفةَ المُحَيَّا تشدُ أزرهم وتقوى عضدهم؛ حتى خلف لنا هذا العصر ثروة ضخمة من آثاره الرائعة والتى ينظر إليها بعين الإكبار والإجلال.

وهذا الذى سقناه يؤكد لنا سيادة اللغة العربية ونهوضها بمظاهر الحياة.

• • •

ظهور اللحن والتّصدِّى له

علت راية الإسلام خفافة فى كثير من بقاع الأرض، وركز العرب أعلامهم عليها، ودخل أهلها فى دين الله أفواجا، وواكبت اللغة - كما أسلفنا - انتصارات الإسلام، فدرسها هؤلاء الأعاجم وتكلموا بها.

ومنذ أن تمت الفتوحات الإسلامية أخذ العرب يمتزجون بالأعاجم، ويعيشون وإياهم عيشة مشتركة، فاختلطوا بهم وتزوجوا من نسائهم، وكان هذا شائعا عند العرب ومعروفا بنظام السرارى والجوارى - .

وكان لهذا الامتزاج بين العرب والأعاجم - زواجا وولاء - آثاره فى العرب ولغتهم، إذ نشأ جيل مولَّد لا هو بالعربى الخالص ولا هو بالأعجمى الخالص، قد أصابته عدوى الدخلاء على العربية وانتقلت إليه آثار من لُكْنهم [1].

وكانت تنشئة كثير من أبناء وجوه الدولة بين أحضان أمهات أو مربيات أعجميات سببا فى استفحال الأمر، فقد أدت فى كثير من الحالات إلى إفساد فطرهم الأدبية وطباعهم اللغوية الموروثة.

ولعل هذا الذى أصاب العربية من لكنة ولحن هؤلاء الأعاجم كان أهم وأفظع، حيث بدأت اللكنة تظهر فى كلام الأعاجم، واللحن - الذى دب فى العربية - يتضح فى نطقهم إذ كان كثيرون منهم يجدون عسرا ومشقة فى نطق بعض حروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم، من ذلك أنَّ أمَّ ولدٍ لجرير قالت

---

١ - اللُّكنة : هى أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية، وتكون من العجم، ومن نشأ من العرب مع العجم. انظر : الكامل للمبرد : ١ / ٣٦٩، والبيان والتبيين: ١ / ٤٨ .

لبعض ولدها : وقع الجردان فى عجان أمكم «فأبدلت الذال من الجرذان دالا ، ونطقت العجين عجانا .

والجاحظ يروى لنا قول بعض الشعراء فى وصف لكنة جاريته وخلطها فى اللغة :

أكثر ما أسمع منها فى السحر

تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسوأة السوأء فى ذكر القمر

ذلك أنها كانت تنطقه (الكمر) بإبدال القاف كافا [١] .

ولم يقف الأمر عند حد الجوارى وإنما تعداه إلى أولئك الموالى الذين ارتقت بهم ملكاتهم ومواهبهم إلى أفق الشعر العربى ، ومنهم - على سبيل المثال - زياد الأعجم الذى كان يرتضخ لكنة فارسية ، فكان لهذا ينطق السين شينا والطاء تاء والعين همزة ، ويروى أنه أنشد المهلب يمدحه :

فتى زاده السلطان فى الودّ رفعة

إذا غيّر السلطان كل خليل

فقال : «زاده الشلتان .. رفأة» وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاما ينشد شعره [٢] ومثله أبو عطاء السندى - وكان مخضرما عاش فى دولتى : بنى أمية وبنى العباس - وقد دفعته لكنته أن يستوهب ممدوحه سليمان ابن سليم الكلبى غلاما ينشد شعره ، فيقول :

أعوزتنى الرواة يا ابن سليم

وأبى أن يقيم شعرى لسانى

---

١ - والبيان والتبيين : ١ / ٤١ .

٢ - انظر البيان : ١ / ٧١ ، والأغانى : ١٣ / ٨٩ .

وغـلا بالذى أجـمجم صـدرى

وجـفـانى لعـجـمـتى سلطانى

وازدرتنى العـيـون إذ كـان لونى

حـالكا مـجـتـوى من الألوان

فـضـربت الأمـور ظهـراً لبطن

كـيـف أحـتـال حـيـلةً للسـانى ؟ (١)

وليت أمر اللحن وقف عند الأعاجم وإنما «تسربت منه آثار إلى ألسنة العرب - سواء من كانوا من أمهات أعجميات أم من أمهات عربيات - ومن هؤلاء عبيد الله بن زياد، وخالد القسرى، والوليد بن عبد الملك، الذى قال فيه أبوه : أضرّ بالوليد حبُّنا له، فلم نوجهه إلى البادية.

والواقع أن اللحن قد اقترن بهذه اللكنات العجماوية بسبب ضعف السلائق العربية، ومن أمثلة اللحن قول زياد الأعجم :

إذا قـلـت قـد أقـبـلت أدبـرت

كـمـن ليـس غـادٍ ولا رائـح

والقياس «ليس غاديا ولا رائحا» (٢).

وقول الوليد بن عبد الملك لأبيه : أقتل أبى فديك الخارجىّ. والقياس أقتل أبا فديك، وقوله لغلامه : ردّ الفرسان الصادان. وقراءته : «يا ليتها كانت القاضية» برفع القاضية.

وهذا اللحن الذى بدأ فى الظهور على هذه الشاكلة أقلق الدولة الأموية

---

١ - الأغانى : ١٦ / ٨٢ .

٢ - الشعر والشعراء : ١ / ٣٩٨ .

العربية، فتصدت له بكل حزم، وجهدت فى مقاومته. إذ كان الخلفاء يمقتون ويحذرون منه ويعدونه عيبا كبيرا، حتى إن عبد الملك بن مروان قال: «شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن» لقد أدرك الأمويون بفطرتهم العربية السليمة خطر اللحن على حياة العربية الفصحى، فتحمسوا أشد التحمس لمبدأ تنقيتها من اللحن والألفاظ الدخيلة عليها، وتثبيت قواعدها وضوابطها، ولهذا كانوا يبعثون بأبنائهم إلى البادية، ليرتضعوا اللغة الفصيحة من أفاويقها، ولينشأوا على تعلمها فى القبائل الأصيلة التى لم تمس بسوء من لكنة أو لحن، هذا من جانب، ووضعوا النحو وهو العلم الذى يرشد إلى معرفة حركة آخر الكلمة، والشكل - أى الحركات - المتمثل فى الضم والفتح والكسر والسكون، والنقط، للتصدى لما جره اختلاط العرب بالعجم، وللمحافظة على القرآن الكريم ولغته الشريفة، من جانب آخر.

كما أن ظهور اللحن على هذا النحو قد أهاب بجماعة من العلماء إلى أن تتجرد لتنقية العربية مما دخلها من فساد، إذ كان دافعا قويا لظهور اللغويين والنحاة، هؤلاء الذين شرعوا الأسنة والرماح فى وجه الفساد اللغوى، وتصدوا له بكل ما أوتوا من قوة؛ ومن هنا ظهر النقد النحوى أو النقد اللغوى، ومن أشهرهم عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى الذى اعترض طريق الفرزدق ونقده كلما أتى بشذوذ نحوى، واستمر على تعرضه له ومراجعته حتى ضاق به الفرزدق فقال يهجوه:

فلو كان عبد الله مولىً هجوته

ولكنَّ عبد الله مَولَى مواليا

فاعترض عليه ابن أبى إسحاق قائلا: كان يحسن أن تقول: مولَى موالٍ.

وبمثل هذا التصدى حافظ الأمويون على حياة اللغة العربية وإهابها، وإن كانت السلائق قد أخذت تضعف حتى عند العرب أنفسهم، وبخاصة من لم ينشأوا فى البادية ويتغذوا بلَبانها، ولذلك فاللغويون فى العصر العباسى قد فصلوا بين ما يعتد الاستشهاد به فى اللغة من الشعر الفصيح، وبين الشعر الذى لا يعتدّ الاستشهاد به، فالأول عندهم يتمثل فى أشعار الجاهليين والمخضرمين وشعر الأمويين إلا أقله، فلا يعتدون مثلا بشعر الطرماح بن حكيم والكميت بن زيد ويتمثل الثانى فى الشعر العباسى، فقد سموه شعر المولدين.

وفى هذا دلالة قاطعة على عناية الدولة الأموية - خلفاء وأمراء وولاة وعلماء - باللغة العربية والحفاظ عليها.

• • •

الأثر الدينى فى الأدب الأموى

أثر الدين الإسلامى تأثيرا عميقا فى نفوس الأدباء والشعراء فى عصر بنى أمية، ذلك لقرب العهد بعصر النبى ﷺ وخلفائه الراشدين، وانتشار موجة الزهد والنسك، ومواعظ وتوجيهات روادها، الذين كثروا فى هذا العصر واشتهر أمرهم وذاع، من أمثال: قتادة، والشعبى، وبكر بن عبد الله المزنى، الذى كان يقول: «الدنيا ما مضى منها فحلم، وما بقى منها فأمانى» ويزيد بن أبان الرقاشى القائل عندما تمنى قوم فى مجلسه، وقالوا له تمنَّ: «ليتنا لم نخلق، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نُعذَّب، وليتنا إذ عُذِّبنا لم نخلد».

والحسن البصرى واعظ العراق بلا منازع، والذى كان يقول: «ليس الإيمان بالتحلى ولا التمنى، ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال» [1].

فى هذا الجو الروحى المثالى، الحافل بالإيمان بعالم آخر هو فوق الحواس والمشاعر، الزاخر باليقين من أن لهذا الكون مدبرا قادرا، تعْنوا له الوجوه، وتخر له الجباه، نبت الأدباء والشعراء، فطبعت نفوسهم بهذا الجو وتأثرت بهذه الروحية وتشربتها، فعبر أدبهم - شعره ونثره - عن نفوسهم، التى آمنت بربها، واستشعرت هذه الحياة التقية الصالحة، المستظلة بظلال الدين؛ فهذه الحياة الروحية قد أثرت فى كثير من جوانب الحياة الفنية وطورتها، يكشف الشعر فى جلاء عما انعكس على موضوعاته ومعانيه نتيجة هذه الأشعة الكثيرة

١ - انظر البيان والتبيين: ج ٣ ص ١٤٤ وما بعدها.

التى نفذت إلى نفوس الشعراء، والتى كان الباعث عليها القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة الأولين ومواعظ وإرشادات هؤلاء الوعاظ والنساك.

فنجد الشعر يحمل قبسات من روح الإسلام كما فى قول جرير يرثى زوجته :

صلى الملائكة الذين تُخـيّـروا

والطيبون عليك والأبرار

ومظاهر الجانب الدينى فى شعر جرير كثيرة ومتنوعة لعمق إيمانه وتدينه وعفته، وقول ثابت قطنة - متأثرا بالقرآن الكريم :

المسلمون على الإسلام كلهمو

والمشركون استووا فى دينهم قددا

من يتق الله فى الدنيا فإن له

أجر التقى إذا وفى الحساب غدا

وما قضى الله من أمر فليس له

ردٌّ وما يقضِ من شئ يكن رشدا

ويقتبس قطرى بن الفجاءة من قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ فيقول :

رأت فتية باعوا الإله نفوسهم

بجنات عدن عنده ونعيم

• • •

لقد عمق الأثر الدينى فى الشعر، حتى إن الشعراء وضعوا الصفات الدينية فى المدح إيجابا وفى الهجاء سلبا، من ذلك أننا نرى عبيد الله بن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير فيجعله قبسا من نور الله، ومسلما كاملا يتمثل فيه الصلاح وتقوى الله، فى قوله :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

يتقى الله فى الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

ونرى كثير عزة يمدح عمر بن عبد العزيز بالزهد وإيثار ما عند الله من رضوان، فى قوله :

تركت الذى يفنى وإن كان مونقا

وآثرت ما يبقى برأى مصمم

وأضررت بالفانى وشمرت للذى

أمامك فى يوم من الشعر مظلم

• • •

كذلك ظهر أثر الدين فى الغزل العذرى، فنجد شعراءه يستخدمون بعض المعانى والألفاظ الإسلامية من أجل أن يؤثروا فى قلوب محبوباتهم من مثل قتل النفس المحرمة، والذنب والظلم، والتقوى والغفران، فهذا عمر بن أبى ربيعة يقول :

ألا يا من أحب بكل نفسى

ومن هو من جميع الناس حسبى

ومن يظلم فأغفره جميعا

ومن هو لا يهم بغفر ذنبى

ويقول جميل بن معمر :

ألا تتقين الله فيمن قتلته

فأمسى إليكم خاشعا يتضرع

ويقول أيضا فى بثينة :

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة

حبيب إليه فى نصيحته رشدى

فقال : أفق حتى متى أنت هائم

ببثنة فيها لا تعيد ولا تبدى

فقلت له : فيها قضى الله ما ترى

علىَّ، وهل فيما قضى الله من ردّ ؟!

فإن يك رشدا حبها أو غواية

فقد جئته ما كان منى على عمد

فقد جد ميثاق الإله بحبها

وما للذى لا يتقى الله من عهد !!

واضح - إذن - أن تأثر فنون الشعر بالإسلام تأثر بالغ، فصفحات كثيرة من الشعر الأموى قد طبعت بطابع دينى، فأنت لا تكاد تجد شاعرا إلا وقد أخذ من هذه الحياة الدينية بحظ يختلف قوة وضعفا، حسب نفسيته وصلته بالدين؛ ولا غرو فالفرزدق الذى عرف بفسقه واستهتاره قد تأثر بالحياة الدينية الروحية، وكأن الإسلام كان يشع فى طويته، فنراه يصيخ لوازع الدين فيكف عن الهجاء، ويلزم نفسه بحفظ القرآن الكريم فيهجو إبليس فى قوله من قصيدته الميمية :

ألم ترني عاهدت ربي وإنني
لبين رتاج قائما ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما
ولا خارجا من فيَ سوء كلام ؟!!
أطعتك يا إبليس سبعين حجة
فلما انتهى شيبي وتم تمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني
ملاق لأيام المنون حمامي

ويضمِّن قول الله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ قوله :

ولست بمأخوذ بقول تقوله
إذا لم تعمَّد عاقدات العزائم

ويقتبس الأخطل نفسه من القران المجيد فيقول :

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
كأنهم من بقايا أمة ذهبوا

كذلك ظهرت في الشعر أدعية وابتهالات، فيها خوف من عذاب الله وفزع من عقابه، وأمل في رحمته وسكون إلى مغفرته، كما في قول ذي الرمة :

يا رب قد أشرقت نفسي وقد علمت
علما يقينا لقد أحصيت آثاري
يا مخرج الروح من جسمي إذا احتضرت
وفارج الكرب زحزحني عن النار

ولقوة الأثر الدينيّ رأينا من الرجاز من يستهل مطالع أراجيزه بالحمد والثناء على الله، هاجرا الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار، وها هو العجاج يفتتح أرجوزة له بقوله :

الحمد لله الذى استقلت

بإذنه السماء واطمأنت

وأبو النجم العجلى يستهل أرجوزته الشهيرة بقوله :

الحمد لله الوهوب المجزل

أعطى فلم يبخل ولم يبخل

ولعل شعر الحماسة كان أقوى فى تأثره بالإسلام من شعر المديح والهجاء، إذ كان ينظم أكثره فى الجهاد، يحث على الاستشهاد فى سبيل الله، رغبة فى الفوز برضوانه، ومن ثَمّ تحولت بعض القطع الحماسية التى نظمت فى خراسان إلى مواعظ خالصة، كقول نصر بن سيّار :

دع عنك دنيا وأهلاً أنت تاركهم

ما خيرُ دنيا وأهلٍ لا يدومونا

وأكْثر تقى الله فى الأسرار مجتهدا

إن التّقى خيرُهُ ما كان مكنونا

واعلم بأنك بالأعمال مرتَهَنٌ

فكن لذاك كثيرَ الهمِّ محزونا..

• • •

والتأثير الدينيّ لم يقف عند حد الشعر وإنما تعداه إلى النثر، وخير مثال على ذلك مواعظ الحسن البصرى ومنها : «يابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما

جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ، يابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثواء هنا قليل والبقاء هناك طويل . . أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم . . يا بن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك . فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . . لو تكاشفتم ما تدافنتم . تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله امرءا أهدى إلينا مساوينا . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون» .

وهكذا أثرت الحياة الدينية فى الحياة الفنية ، ورن صدى التأثير الدينى فى فنون الشعر والأدب وتعددت مظاهره .

• • •

الشعر في العصر الأموى

نهضة الشعر وآثارها :

الأدب بعامة والشعر بخاصة في كل أمة ترجمانها والمرآة التى تكشف عن مرائيها، وهو لذلك «خاضع بالضرورة لتطور حياتها بكل أبعادها، وعلى قدر خطر التغيرات فى حياة الأمة وكنهها يكون خطر التغيرات فى الأدب، لأنها التى تحدد - بلا ريب - مجرى الأدب وترسم اتجاهاته ومساربه.

والواقع أن الحياة العربية قد شملها كثير من التغير والتطور فى جميع مناحيها منذ انبثاق نور الإسلام الوهاج فى ظلام الجاهلية وبداوتها. ثم كان لانطلاق العرب من جزيرتهم فى مواكب الفتح الإسلامى إلى آفاق رحبة جديدة الأثر فى تكوين جماعتهم على سمت جديد، إذ تفتحت عيون العرب فى البلاد المفتوحة على الخصب والازدهار والتحضر والثقافة والعلوم والمعارف المبتكرة، فشرع يقيم حضارة جديدة على أسس حضارته القديمة؛ وواكب الأدب - شعره ونثره - هذه الحضارة، فكان من بعض نواحيه امتدادا للتقاليد الأدبية الموروثة من الجاهليين، كما كان من بعض النواحى الأخرى مرآة انعكست عليها التطورات العميقة التى جدت فى حياة المجتمع الإسلامى فى ظل دولة بنى أمية.

لقد استجاب المجتمع الأموى لنداء التطور، فنشطت فيه الحركة الأدبية نشاطا ملحوظا، وكان العصر الأموى من أزهى عصور الأدب، إذ ازدهر فيه الأدب بعامة، بكل فنونه من خطابة وكتابة ومحاورة وتدوين ونقل - والشعر بخاصة، وكان من مظاهر ازدهاره نهضة النثر الفنى، وذيوع الشعر ونهضته،

والتطور والتجديد اللذان شملا فنونه وألوانه، حتى شغل كل لسان، واحتل كل مكان، وعبر عن كل شئ، لقد طفر الشعر - قصيده ورجزه - فى هذا العصر طفرة قوية لم يتقهقر إلا بعد قرون عدة، وليس السبب فى نهضة الشعر قاصرا على العوامل السياسية بكل أبعادها، وإنما هناك عوامل كثيرة نهضت بالشعر وأدت إلى اتساع دائرته الفنية، منها المؤثرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، غير أن العامل السياسى كان أعظمها خطرا وأقواها أثرا.

إن خصوبة الحياة السياسية وشدة الصراع فيها بين الأحزاب والعصبيات القبلية والطوائف المذهبية، ونشوب الحروب بينها، وتقدير الحكام للشعراء ورعايتهم لهم، واستخدامهم إياهم فى تثبيت دعائم الملك، وشيوع مظاهر الحضارة ومشاهدها وإحياء التراث الأدبى القديم، والتأثر بشعر الجاهليين ومناهجه، والتأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والوقوف على حضارة وآداب الفرس والروم والتأثر بهما، وإغراء بعض الشعراء ببعض، وقيام الخصومات الأدبية بين الشعراء، واهتمام القبائل بالشعر، وشيوع الغناء بالشعر وظهور نقد علماء اللغة والأدب، كل هذه من الأسباب التى أدت إلى نهضة شعرية راقية فى عصر بنى أمية.

كان من آثار هذه النهضة : علوّ منزلة الشعر والشعراء، فقد كان الشعر يمثل عندهم الصحف السيارة فى عصرنا الحديث، ونَبه - تبعا لذلك - شأن الشاعر. نشأة علوم تتصل بالشعر وتدور حوله : مثل رواية الشعر ونقده ووضع مؤلفات قامت على اختيارات فيه.

قيام حركات التجديد فى الشعر واتساع دائرته الفنية، وصقل الشعراء لفنهم وتنافسهم فى إتقانه، وتساميهم فى تجويده، ورصفه، وتباريهم فى

تهذيبه، وتجديدهم فى معانيه، وسموهم بأخيلته، وعكوفهم على النفس، واستدرارهم الأحاسيس.

كما كان من آثار نهضته: ذيوع الشعر وانتشاره وسيرورته فى الآفاق، فأضحى الفن الأهم والأول من بين الفنون الأدبية قاطبة.

لقد تطور الشعر وجدد من إهابه نتيجة لكل هذه المؤثرات، فظهرت فيه فنون جديدة لم تكن فيه من قبل. كالشعر السياسى، والنقائض والغزل العذرى والقصصى، وشعر الزهد. وشعر الأراجيز.

كذلك يرى المطلع على شعر هذا العصر أنه قد اصطبغ بلون بيئته، فتأثر فى كل مصر بصورة حياة أهله، ففى الحجاز حيث الترف والنعيم والجوارى والفراغ والغناء كان الغزل الرقيق السائغ ومقطعات الغناء، وفى البادية: حيث الوقار والجفاء والجد، كان المدح والفخر والهجاء والنقائض وما إلى هذه من الفنون، وفيها ظهر العذريون، فمثل شعرهم نفوسهم وأحساسيهم خير تمثيل؛ حيث خطر فى حلل العفة والتسامى والروحانية والتفانى والضراعة فى الحب.

وفى العراق: حيث الخصومات السياسية والتمرد والثورة، كان الشعر السياسى وفن النقائض وما إليهما.

ولعلو منزلة الشعر والشعراء وبُعد خطرهما، ولأن الشعر كان مصدر غنى وثراء فقد كثر الشعراء كثرة مفرطة، حتى إن باحثا لا يتسطيع أن يحصى شعراء العصر الأموى، ومنهم - على سبيل المثال لا الحصر - الأخطل والفرزدق وجرير والراعى النميرى والبعيث وذو الرمة وأبو العباس الأعمى والكميت بن زيد وابن قيس الرقيات، وقطرى والطرماح بن حكيم وعمر بن أبى ربيعة والعرجى - حفيد عثمان بن عفان - وكثير عزة وجميل بثينة وقيس - مجنون لبنى - وقيس - مجنون ليلى - ونصيب والأحوص.

ومن الرّجاز : العجاج التميميّ والأغلب العجليّ ورؤبة بن العجاج وأبو النجم ودكين بن رجاء . وغيرهم .

إن فى هذا لدليلا واضحا على تلك النهضة الراقية التى بلغها الشعر العربى فى ظلال دولة بنى أمية .

• • •

الخصائص الفنية

فـى

أسلوب الشعر ومعانيه

درج كثير من الباحثين على أن الأدب فى عصر الأمويين لم يكن إلا امتدادا للحياة الأدبية فى الجاهلية، وأنه لم يتغير عما كان عليه فيها إلا تغيرا طفيفا جزئيا اقتضته طبيعة التغير.

غير أن الواقع يؤكد أن الشعر الأموى كان من بعض نواحيه امتدادا لهذه التقاليد الأدبية الموروثة من الجاهلين، من ذلك: بناء القصيدة الفنى. إذ تقوم القصيدة على عدة عناصر، واستهلالها بالنسيب أو المقدمة الطللية: وكأن هذا النظام الموروث قد راق لدى معظم شعراء العصر فساروا عليه، بل إن منهم من تقفى أثر السابقين فنظم على غراره، كالأخطل فى قصيدته التى مطلعها:

تغــيـــر الرسم من سلمى بأحـــفـــار

وأقـــفـــرت من سليــــمى دمنة الدار

فنراه يحذو فيها حذو النابغة الذبيانى فى قصيدته التى مطلعها:

عـــوجـــوا فـــحـــيـــوا لنُعْم دمنة الدار

مـــاذا تحـــيـــون من نؤى وأحـــجـــار

ويسايره فى وزنها وقافيتها:

كما كان الشعر الأموى من بعض النواحى الأخرى مرآة انعكست عليها

التطورات العميقة التى جدت فى حياة المجتمع الإسلامى: فقد أفاد منها الشاعر الأموى، فتجدد أسلوبه الشعرى وتطور، وتنوعت أغراضه وفنونه، ورحبت آفاق معانيه وأفكاره، واتسعت مطارح خياله.

نعم: لقد تنوع الشعر فى بعض مواطنه فنا وأسلوبا. ولكنه لم يخرج فى صورته الجوهرية من حيث أوزانُه وقوافيه وطريقةُ قرضه عما كان عليه فى الجاهلية وصدر الإسلام.

ومن ثم فليس من الحكمة فى شئ أن نصدر حكما عاما على أسلوب الشعر الأموى [1] ذلك لأن العوامل المؤثرة فيه متعددة ومتباينة. ولكل عامل أثره، ولهذا وجدت فى الشعر نزعات مختلفة ومذاهب متباعدة وألوان متعددة، نتيجة تباين هذه العوامل وتعددها.

من تلك العوامل: القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد التفت إليهما الشعراء، واستظهروا أسلوبهما، وتملوا من بلاغتهما، وأعجبوا بألفاظهما العذبة، وإشراق بيانهما، وهما - القرآن والحديث - يدعوان إلى عدم التقعر فى القول، ويزهدان فى غطرسة وعنجهية الجاهلية وغرابتها، فكان لهذا أثره فى تهذيب لفظ الشعر وأسلوبه، وهجر الحوشى من الألفاظ، وترقيق حواشيه، وصفاء ديباجته، وأشد ما يكون ذلك وضوحا عند ذى الرمة - الذى استحوذ على الغريب الحوشى - فإنه حينما ارتوى من هذا النبع الرقراق رقت ألفاظه وسلست أساليبه فى قوله :

---

١ - أدلى لفيف من الباحثين بدلائهم فى الكلام عن الأسلوب، وظفرنا من وراء ذلك بأقوال كثيرة، والذى نؤكد عليه: أن الأسلوب إنما يعنى: ذلك النهج الذى ينهجه الأديب فى صياغة أدبه، وتلوين صوره بعواطفه ومشاعره، لتؤثر التأثير القوى والفعال فى نفوس قارئيه وسامعيه، ومن هنا فأسلوب الشعر إنما يمتاز بما يحتويه من حرارة الشعور واتقاد العاطفة ولطف التخيل وقوة التأثير، وقدرته على إلهاب المشاعر والوجدانات وتأجيج العواطف والانفعالات، فتتألق أمامنا - من خلال هذا كله - شخصية الأديب الذى ينشئ الأسلوب.

أنا ابن النبيين الكرام ومن دعا
له الشيخ إبراهيم والشيخ يذكر
ليالي تحتل الأباطح جرهم
وإذ بأبينا كعبة الله تعمر
نبي الهدى منا وكل خليفة
فهل مثل هذا في البرية مفخر؟!!

• • •

غرام الأمويين بالجاهلية وإحياء آدابها ورواية الشعر الجاهلي ودراسته واستظهاره، فكان ذلك أدعى إلى أن تتأثر أذواق شعراء العصر بالشعر الجاهلي - بما ينطوي عليه من جزالة ألفاظه وضخامة أساليبه - وأن ينزعوا منزع الجاهليين في قولهم، يصور لنا هذا ذو الرمة في واحدة من لوحاته الناطقة، تلك التي تصور عاطفة الظبية نحو ابنها أو - خشفها - :

إذا استودعته صفصفا أو صريمة
تنحت ونصت جيدها بالمناظر
حذارا على وسنان يصرعه الكرى
بكل مقيل عن ضعاف فواتر
وتهجره إلا اختلاسا نهارها
وكم من محبٍ رهبة العين هاجر
حذار المنايا رهبة أن يفتنها
به وهي إلا ذاك أضعف ناصر [1]

١ - الصفصف: الأرض المستوية، والصريمة: الرملة. نصت: رفعت ونصبت. يفتنها: يسبقها. الشاعر يصور الظبية وقد رمت بخشفها أو ابنها على الأرض أو الرملة ووقفت بعيدا، كأنها =

ولعل غرام العصر بالجزالة والضخامة قد مكن للأراجيز، وجعل لها شيعة، وأكسبها وجاهة واتساعا.

• • •

الحضارة والترف وآثار المدنية وشيوع الغناء والعيش فى ظلال النعيم وتفشّى العشق فى البوادى من العوامل التى أدت إلى رقة الألفاظ وعذوبتها، وسهولة الأساليب وانسجامها، كما فى قول الأحوص :

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلّدا
فقد غلب المحزون أن يتجلّدا

وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى
وإنْ لام فيه ذو الشّنان وفنّدا

بكيت الصِّبا جهدا فمن شاء لامنى
ومن شاء واسى فى البكاء وأسعدا

وإنى وإنْ عيِّرت فى طلب الصبا
لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا

وقول جرير :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة
رُدِّى علىَّ فؤادى كالذى كانا

ألست أحسن من يمشى على قدم
يا أملح الناس كل الناس إنسانا ؟!

= تخشى إن مكثت معه أن تدل عليه السباع، فهى تبعد عنه، وتنظر من حولها حذارا على ابنها، وإنها لتخالس النظر إليه، وهكذا تأخذها الشفقة عليه، فتبعد وهى المحبة، وتهجر وهى العاشقة.

لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى
لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت
أسباب دنياك من أسباب دنيانا
أبُدِّلَ الليلُ لا تسرى كواكبه ؟!
أم طال حتى حسبت النجم حيرانا ؟!
إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعْن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

• • •

وكما كانت الحواضر عاملا من عوامل الرقة والسهولة فقد كانت البوادى عاملا من عوامل الخشونة والوعورة، حيث عاش نفر من الشعراء فى البادية، أو بروح البادية، انطبعت فى نفوسهم صورُها وأطيافها وأسلوبها، فكانت طبائعهم جافة غليظة، وأذواقهم بدوية عنيفة، ولغتهم ضخمة غريبة، وأخيلتهم لا تختلف كثيرا عن الأخيلة البدوية الجاهلية، فجاء شعرهم فى معظمه جاهليا: جزل الألفاظ، قوى الأسلوب، متين التركيب، غريب المنزع، وعر المسلك، كما فى قول ذى الرمة فى وصف جبل :

ترى رعنه الأقصى كأن قموسه
تحامل أحوى يتبع الخيل ظالع [1]

---

١ - القموس: الأجزاء الغارقة فى السراب. الأحوى: الفرس الأسود. والمعنى: أن الصخور العالية =

وفى قول الفرزدق يضف ذئبا - وهو يعد من أسهل أشعاره :

وأطلس عسّال وما كان صاحبا
دعوت لنارى موْهِنا فأتانى

فلما أتى قلت : ادن دونك، إننى
وإياك فى زادى لمشتركان

فبتّ أقدُّ الزاد بينى وبينه
على ضوء نار مرة ودخان

ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى
رماك بسهم أو شباة سنان (١)

• • •

وهذا الأسلوب القوى المتين الغريب الوعر يكشف لنا عن ألون من أوان الأدب راج فى عصر بنى أمية هو «فن الأراجيز» وسوف نتناوله ونبسطه عند حديثنا عن فنون الشعر إن شاء الله .

وبعد : فهذه هى العوامل التى يعزى إليها تنوع الأسلوب الشعرى وتباينه فى العصر الأموى : ولعلك - بعد - قد وقفت معى على أن الشعراء الذين انقطعوا إلى البادية وحيوا حياة الجاهلية، قد تقعروا فى الألفاظ وتوعروا فى الأساليب، وأن الشعراء الذين أشربت روحهم الإسلام، وتأثروا بالحضارة،

= فى الجبل تبدو له - للشاعر - وسط السراب كأنها خيل تجرى، وقد ندت منها صخرة تجرى وراءها وكأنها فرس ظالع .

١ - أطلس : أغبر اللون . عسال : مضطرب فى مشيته . موهن : نحو من نصف الليل . أقد : أقطع . شباة سنان : طرف السنان .

وأفادهم التثقيف، وأن الذين فاضت قلوبهم بالعشق، ونضجت وجداناتهم بالعفة والتسامى، قد رقت ألفاظهم، وعذبت أساليبهم، ولانت حواشيها.

ومن النوع الأول: الفرزدق والأخطل وذو الرمة والقطامى، والرجاز وغيرهم.

ومن الثانى: كثير والمجنون وجميل وابن أبى ربيعة ونصيب والأحوص وغيرهم.

ومن هنا فليس من الحكمة وصواب الرأى والإنصاف أن نحكم على أسلوب الشعر الأموى حكما عاما، وأن نجمع بين مجنون بنى عامر وذى الرمة، أو بين عمر بن أبى ربيعة والفرزدق، لتباينهم فى الأسلوب والمنزع فللمجنون وعمر أسلوب، ولذى الرمة والفرزدق أسلوب، وهما من التباين بحيث لا يلتقيان.

لقد جمع الشعر الأموىّ بين ما فى الشعر الجاهلىّ من قوة الأسلوب ومتانة التعبير وما كان للإسلام من أثر فى حياة العرب وتهذيب طباعهم وتنمية ثقافتهم..

لم يختلف أسلوب الشعر فى هذا العصر عما كان عليه فى الجاهلية وصدر الإسلام من حيث بناء القصيدة من عدة عناصر، وسهولةُ العبارة وصعوبتها ورقة الألفاظ وغرابتها، وكان الغالب على عبارة الشعر وألفاظه الفحولة والجزالة واستعمال الغريب فى موضوعات الشعر الجدية كالمدح والفخر ووصف البيئة ومظاهرها، بينما تغلب سهولة الألفاظ وعذوبتها ورقيها فى الغزل والنسيب والعتاب، فقد رقت أساليب هذه الموضوعات وألفاظها رقة لم تعهد من قبل إلا نادرة؛ وقد طالت قصائد هذا العصر وأراجيزه، وقلّت عيوب الوزن والقافية، وزادت فنون الشعر، ودقت معانيه.

أما معانى الشعر فى هذا العصر : فقد دارت فى فلك المعانى التى وقع عليها شعراء الجاهلية فى الغالب، بيد أن هذه الحياة الجديدة بمظاهرها وألوان حضارتها وتنوع ثقافتها ومعارفها قد أكسبت الشاعر الأموىَّ مقدرة فنية مكّنته من إيراد معانى السابقين فى صور لم تكن فى مقدور الجاهلىِّ، ومن التوسع فى هذه المعانى، فإن من طبيعة الأشياء أن تتغير المعانى القديمة وتستحيل لا أن تموت وتبلى، ومن هنا فقد كانت المعانى مظهر الجدة والابتكار والكثرة والثراء والترتيب والتسلسل، إذ غلبت على معانى الشعر الأموى الدقة والعمق والتنسيق وترتيب الأفكار وتسلسلها، وكثرة الحكم والأمثال، وتنوع التشبيهات، وسموّ الخيال، وجدة المعانى المستقاة إما من الإسلام بتعاليمه ومعانيه ودستوره الخالد، وإما من مظاهر الحياة الجديدة وثقافتها.

لقد ظهرت - إذن - فى شعر العصر وحدة القصيدة بوضوح، وكان لشعراء الموالى فضل فى هذا، فالارتباط والتنسيق عندهم والذى وضح فى شعرهم إنما يرجع إلى تأثرهم بروح القصص الفارسى ؛ من ذلك قول إسماعيل ابن يسار :

كلثم أنت الهَمّ يا كلثم
وأنتِ دائى الذى أكتم
أكاتم الناس هو شفّنى
وبعض كتمان الهوى أحزم
قد لمتنى ظلماً بلا ظِنّة
وأنت فيما بيننا ألوم

ولا شك أن هذا وأمثاله قد قالوا الشعر متأثرين بعقليتهم الفارسية.

من المعانى التى تحمل روح الإسلام ووحيه قول الكميت فى بنى هاشم :

إلى النفر البيض الذين يحبهم
إلى الله فيما نابني أتقرب

بني هاشم رهط النبي فإنني
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

خفضت لهم مني جناحي مودة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وقول أعشى همدان في الحجاج متأثرا بالقرآن الكريم :

أبى الله إلا أن يتمم نوره
ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا

• • •

هذا الشعور الإسلامي نجده في شعر الغزلين العذريين فياضا، فهذا وضاح اليمن يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخص في اللمم فيقول :

إذا قُلْتُ يوما نوليني تبسمت
وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

فما نولَتْ حتى تضرعتُ عندها
وأعلمتها ما رخص الله في اللمم

كما أن العذريين يستلهمون في غزلهم بعض الأفكار الإسلامية، كفكرة العفو والغفران، يقول عمر بن أبي ربيعة :

فديتك أطلقي حبلي وجودي
فإن الله ذو عفو غفور

ومن المعانى المبتكرة الجديدة والتى كانت نتيجة تمدُّين العقلية العربية وتحضُّرها قول جرير يتهكّم :

زعم الفــرزدق أن ســيــقــتـل مــربعــا
أبشــــر بطول ســـلامـــة يا مـــربع !!

وقول الفرزدق :

يغــضى حــيــاء ويغــضى من مــهــابتــه
فــمـــا يكلّم إلا حـــين يبـــتـبـــسم

ومنها ما كان نتيجة الانغماس فى الترف كما فى قول الوليد بن يزيد، ذلكم الذى أكثر من القول فى وصف الخمر، وأتى فيها بما لم يأت به السابقون، والذى استمد منه أبو نواس - فيما بعد - خمرياته، ومن هنا عدّه بعض الباحثين أستاذ أبى نواس فى الخمريات، من قول الوليد فى الخمر - وهو من المعانى المبتكرة :

من قـــهـــوة زانهـــا تقـــادمـــهـــا
فـــهى عـــجـــوز تعلو على الحـــقب
أشـــهى إلى الشـــرب يوم جلوتهـــا
من الفـــتـــاة الكريمـــة الحـــسب
فـــهى بغـــيـــر المزاج من شـــرر
وهى لدى المزج ســـــائل الذهب
كـــأنهـــا فى زجـــاجـــهـــا قـــبس
تذكـــو ضـــيـــاء فى عـــين مـــرتقب

وجملة القول أن الشعر فى هذا العصر بلغ غايته فنًا وصناعة حتى نبل فى عيون أولى الذوق، وفضله بعض المتقدمين على شعر الجاهلية والمخضرمين، وما ذلك إلا لأنه الأنموذج الراقى للشعر العربى الصميم.

• • •

فنون الشعر الأموى

تطورت الحياة فى العصر الأموى من جميع وجوهها تطورا ملحوظا ولما كان الشعر المرآة التى تنعكس على صفحتها صورة المجتمع بكل ما تحمل من أبعاد، فقد تأثر الشعر بهذه الحياة أيما تأثر، وجاءت فنونه صورة صادقة لكل ما جدَّ فى حياة المجتمع الأموى من مظاهر الحضارة وألوان الترف، وتشكلت بظروفه السياسية وعاداته وتقاليده، فكانت بحق صورة دقيقة لحياة هذا المجتمع فى جميع شئونه الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد شمل التطور والتجديد كل فنون الشعر. واستحدث الشعراء فنونا لم تكن موجودة من قبل، اقتضتها مظاهر الحياة الجديدة وملابساتها.

وعلى هذا ففنون الشعر الأموى إما فنون قديمة متطورة، وإما فنون جديدة مبتكرة.

ذلك أن الشعراء فى هذا العصر قد طرقوا كل فنون الشعر التى تناولها الشعراء من قبل، والتى عرفها الشعر منذ العصر الجاهلى كالفخر والحماسة والمدح والهجاء والغزل والرثاء والعصبية والخمريات، غير أنهم قد جددوا من إهابها فى ظل الأمويين، وخلعوا عليها ألوانا وخواص لم تكن فيها، فاكتسبت على أيديهم جدة، وأصابها التطور نتيجة المقومات الجديدة.

كما أنهم قد ابتدعوا فنونا جديدة لم تكن معروفة لدى من سبقوهم، وكان الشعراء الأمويون آباء عذرتها، استجابة لدواعى الحياة وتلبية لصيحاتها منها :

١ - **الشعر السياسى :** والذى كان صدى لهذه الخصومات السياسية والصراع الحزبى والمنافرات الحربية والإغراق فى العصبيات القبلية، وقد رأيت - سلفا - أنه كان لكل حزب سياسى شعراؤه، يدافعون عنه ويذودون ويقررون حقه ومبادئه، من ذلك ما قاله كعب ابن جعيل - الأموى - :

أرى الشام تكره ملك العراق
وأهل العراق له كارهونا
وكلٌ لصاحبه مبغض
يرى كيف ما كان من ذاك دينا
وقالوا : علىٌ إمام لنا
فقلنا : رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا لنا
فقلنا : ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد
وضرب وطعن يفض الشئونا

ورد النجاشى بن كعب - الشيعى - قائلا :

دعن يا معاوى ما لن يكونا
فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌ بأهل العراق
وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟!
فإن يكره القوم ملك العراق
فقدْ مَا رضينا الذى تكرهونا

فقولوا لكعب أخى وائل

ومن جعل الغث يوما سمينا

جعلتم عليًّا وأشياعه

نظير ابن هند ألا تستحونا ؟!!

• • •

٢ - **الشعر الشعوبى :** المنبثق عن تلك النزعة الشعوبية التى تسوى بين العرب والعجم، أو تفضل العجم على العرب، والتى استفحل أمرها فى ظل بنى العباس :

ومن شعراء الشعوبية : إسماعيل بن يسار القائل فى قصيدة له :

رُبَّ خال متوَّج لى وعم

ماجد مجتدى كريم النصاب

إنما سمى الفوارس بالفر

س مضاهاة رفعة الأنساب

فاتركى الفخر يا أمام علينا

واتركى الجور وانطقى بالصواب

واسألى إن جهلت عنا وعنكم

كيف كنا فى سالف الأحقاب !!

إذ نربِّى بناتنا وتدسُّو

ن سفاها بناتكم فى التراب !!

ويفتخر بالفرس قائلا :

إني وجـدّك مـا عـودي بذي خـور
عند الحـفـاظ ولا حـوضي بمهـدوم

أصْلي كـريم ومـجـدي لا يقـاس بـه
ولي لسـان كـحـد السـيف مـسـموم

أحـمي بـه مـجـد أقـوام ذوي حـسـب
من كل قـرم بتـاج الملك مـعـمـوم

• • •

٣ - **وصف البلاد المفتوحة والانفعالات النفسية :** على حد قول حندج المُرَى :

في ليلِ صـول تناهى العـرض والطول
كـأنما ليـلـه بالـلـيل مـوصـول

لا فـارق الصـبح كـفي إن ظفـرت بـه
وإن بـدت غـرة مـنه وتحـجـيـل

لسـاهر طـال في صـول تمـلـمـلـه
كـأنه حـيـة بالسـوط مـقـتـول

متى أرى الصـبح قـد لاحت مـخـايله
والليـل مـزقت عنه السـرابيـل ؟!

ليل تحـيـر مـا ينحط في جـهـة
كـأنه فـوق متن الأرض مـشكـول

نجـومـه ركـد ليـست بزائلة
كـأنما هن في الجـو القـناديـل !!

• • •

٤ - الغزل بنوعيه : القصصىّ والعذرىّ، وهما يختلفان كل الاختلاف عن الغزل التقليدى المعروف، وقد شاعا فى مدن الحجاز - مكة والمدينة والطائف - وبواديه، ووجودهما يرجع إلى أسباب سياسية - كما عرفت - واجتماعية خلقتها الأسباب السياسية، تقوم على الغنى والثراء والترف والفراغ، أو إلى التسامى الروحىّ وشيوع العشق فى البوادى .

وقد توزعت أبصار سكان الحواضر فى مجالات الحسن، فلم تقف أفئدتهم عند امرأة بعينها، فصاروا طلاب جمال، يتلمسونه أنّى وجد، ويعلقون به ما أقام، ويصور الشعر مشاعر الشعراء ومشاعر النساء معا، ومن هنا ظهر الغزل القصصىّ، وحمل لواء هذا الفن عمر بن أبى ربيعة، وسار على طريقته العرْجىّ حفيد عثمان بن عفان، والأحوص، وغيرهما .

وفى بوادى الحجاز حيث لا ترف ولا ثراء، وحيث تصول العفة، وتجول الفضيلة، وحيث المرأة ضاربة الجران، فى هذه البوادى ظهر الحب العفيف والغزل العذرى فى شعر يصور العواطف النبيلة والأحاسيس السامية، المنتزعة من القلب والوجدان، وقد نهض بالغزل العذرى أعلام كثيرون من أمثال : جميل بن معمر - صاحب بثينة - وكثيّر بن عبد الرحمن - صاحب عزة - وقيس العامرى المجنون - صاحب ليلى - وقيس بن ذريح - صاحب لبنى - وغيرهم .

من الأول قول عمر بن أبى ربيعة :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز من لا يستبد

ولقد قالت لجارات لها
ذات يوم وتعرت تبترد
أكما ينعتني تبصرنني
عمركن الله أم لا يقتصد ؟!
فتضاحكن وقد قلن لها
حسن في كل عين من تود
حسدا حملنه من أجلها
وقديما كان في الناس الحسد !!

وقوله :

قالت لترب لها تحدثها
لتفسدن الطواف في عمر
قومي تصدى له ليعرفنا
ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها : قد غمزته فأبى
ثم اسبطرت تسعى على أثري [1]

وقوله :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
مصابيح شبت للعشاء وأنور

١ - اسبطرت : أسرعت في السير .

وغـــاب قُـــمـــيْـــر كنت أرجـــو غـــيـــابه

وروح رعْـــــيـــــان ونـوم ســـــمـــــر

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية احباب وركنى خيفة القوم أزور

فـحـــيـــيت إذ فـــاجـــأتهـــا فـتـــولهت

وكـــادت بمهـــجـــور التـــحـــيـــة تجـــهـــر

فـقـــالت وعـــضت بالبنان : فـضـــحـــتنى

وأنت امـــرؤ مـــيـــســـور أمـــرك أعـــســـر

أريـــتـــك إذ هُـــنـــا عـــلـــيـــك ألـــم تـــخـــف

رقـــيـــبـــا ، وحـــولى من عـــدوك حـــضـــر ؟

فـقلت لهـــا : بل قـــادنى الشـــوق والهـــوى

إليك ، ومـــا نفس من الناس تشـــعـــر

فلمـــــا تقـــــضى الليـل إلا أقـلـه

وكـــادت توالى نجـــمـــه تتـــغـــور

أشـــارت لأختـــيـــهـــا : أعـينا على فـتى

أتى زائرا والأمـــر لـلأمـــر يقـــدر

فـــأقـــبلتـــا فـــارتاعـــتـــا ثم قـــالتـــا

أقلى عليـك اللوم فـــالخطب أيســـر

يقـــوم فـــيـــمـــشى بيننا مـــتنكرا

فـــلا ســـرنا يفـــشـــو ولا هو يظهـــر

فلمـــا أجـــزنا ســـاحـــة الحى قلن لى

ألـم تتق الأعـــداء والليل مـــقـــمـــر ؟

وقـلـن : أهـذا دأبـك الـدهـر ســـــادرا

أمـــا تســتـــحى أوترعـــوى أو تـفكـر ؟!

إذا جـئت فـامنح طرف عـينيك غـيـرنا

لكى يحـسـبـوا أن الهـوى حـيث تنظر

هنيـئـــا لأهل العـــامـــرية نشـــرها الـ

ـلذيـذ ورياهـا الـذى أتـذكــــــــر !!

• • •

ومن النوع الثانى قول جميل :

وإنـى لأرضـى مـن بـثـــــينـة بـالـذى

لـو ابصـــــره الـواشـى لـفـــــرت بلابـلـه

بـلا ، وبـألا أســـــتـطيـع ، وبـالمنـى

وبـالأمـل المرجُـــوِّ قـــد خـــاب آملـه

وبـالـنظرة العـــجلى وبالحَــوْل تنقـضى

أواخـــــره لا نـلـتـــــقـى وأوائـلـه

وقولـه :

يقـــولون : جـــاهد يا جـــمـــيل بغـــزوة

وأىّ جـــهـــادٍ غـــيـــرهن أريـد ؟

إذا قلت : ما بى يا بثينة قاتلى

من الحب ؟ قالت : ثابت ويزيد

وإن قلت : ردّى بعض عقلى أعش به

مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

وقول كثيّر من قصيدة يذكر فيها هجر عزة وسلوانه :

وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا

ولا موجعات القلب حتى تولت

فوالله ما قاربت إلا تباعدت

بهجر ولا أكثرت إلا أقلت

أسيئ بنا أو أحسنى لا ملومة

لدينا ولا مقلية إن تقلت

فلا يحسب الواشون أن صبابتى

بعزة كانت غمرة فتجلت

فوالله ثم الله ما حل قبلها

ولا بعدها من خلة حيث حلت

فيا عجبا للقلب كيف اعترافه

وللنفس لما وطنت كيف ذلت !!

وإنى وتهيامى بعزة بعدما

تخليت عما بيننا وتخلت

لكما لمرتجى ظل الغمـــامــة كلمـــا

تبـــوأ منهـــا للمـــقـــيل اســتـــقلت

وتدخل فى نسيج هذا الفن دالية ابن الدمينة (عبد الله العامرى التميمى) التى أولها :

ألا يا صــبـــا نجـــد مـــتى هجت من نجـــد

لقـــد زادنى مـــســراك وجـــدا على وجـــد !!

وقوله :

أحـــقـــا عـــبـــاد الله أن لسـتُ غـــاديا

ولا رائحـــــــا إلا عـلـىَ رقـــــيـــب ؟!

ولا زائرا وحـــدى ولا فى جـــمـــاعـــة

من النـاس إلا قـــيـــل : أنت مـــريـب ؟!

وهـل ريبـــــةٌ فـى أن تحنَ نجـــيـــبـــة

إلى ألـفـــهـــا أو أن يحـن نجـــيـب ؟!

فـــلا خــيـــر فى الدنيـــا إذا لم تزُرْ بهـــا

حـبـيـبـــا ولم يطرب إليك حـبـيـب !!

هذه الفنون - سواء منها المتجددة المتطورة أم الجديدة المبتكرة - قد تنوعت بتنوع الأقاليم، وتأثرت بأحوال البيئات، فقد شاع الغزل فى الحجاز - مدنه وبواديه - حيث كثر الترف، وفاض الثراء، وانتشر الفراغ، وذاع الغناء، واستشرى العشق.

وفى العراق : كان الفخر، وكثر الهجاء، وولد الشعر السياسى، حيث

العصبيات مضطرمة، والخلافات السياسية مستحكمة، والحياة ثارة، والفتنة عارمة.

وفي الشام: كان المدح والوصف، وما إليهما، حيث مَهْدُ الملك ومقر الحكم، ومثابة الشعراء وكعبتهم.

وهكذا طور الشعر الأموي في فنونه، وجدد في أغراضه، وأوجد فنونا لم يعرفها عالم الشعر من قبل.

ولنا الآن لقاء بفنين من هذه الفنون الجديدة المهمة.

• • •

النقائض

ظهرت النقائض وتألقت في ظل دولة بني أمية، حيث أججها وأذكى أوارها ذلك الجدل السياسي والقبلي والاجتماعي والأدبي.

والنقائض جمع نقيضة، مأخوذة من نقض البناء إذا هدمه، ونقض الحبل إذا حله، والعهد إذا نكث ولم يوف. قال تعالى: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ وقال عز وجل: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾ تقول: ناقضته مناقضة، إذا أبطلت كلامه وأقمت على أنقاضه ما يغايره.

وصورتها الاصطلاحية في الشعر تقوم على: اتجاه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيا أو مفتخرا، طلبا لثأره منه بقصيدة على غرار القصيدة الأولى في الوزن والقافية والروي، يفنّد فيها معاني الشاعر الأول ويبطل أفكاره، فلا بد فيها إذن من الوحدة الموضوعية والوحدة الموسيقية.

وعلى هذا فمعاني النقائض إنما تتقابل وتختلف، لأن الشاعر الثاني يدأب على أن يفسد على الشاعر الأول معانيه، فإذا كانت هجاء ردها عليه وأربى عليها بما يحيط به علما أو يجيد اختراعه، وإذا كانت فخرا ألصق بها الكذب أو فسرها لصالحه هو أو ما إلى ذلك.

ومن هنا فالمحور الذى تدور عليه النقائض هو المعاني، وتتشكل عناصر المعاني من الأحساب والأنساب، والأيام، والمآثر والأمجاد، والمثالب والمعايب.

والمناقضة تختلف عن كل من المعارضة والمفاخرة والمنافرة، لأن المعارضة تعنى : إعجاب شاعر بالجانب الفنى فى قصيدة فينظم على غرارها دون قدح فى القصيدة الأولى، وليس من اللازم أن يكون الشاعران متعاصرين بخلاف المناقضة، وأن المفاخرة تعنى : تفاخر شاعر فيرد عليه الآخر بمثل تفاخره دون تقيد بوزن أو قافية ودون هجاء، وأن المنافرة تقتضى المحاكمة، حين يفتخر كل منهما على الآخر فيحتكمان إلى ثالث ليحكم بينهما ويفصل فى الخصومة الأدبية، كما فعل علقمة بن علاثة مع عامر بن الطفيل حين تنافرا إلى هرم ابن قطنة الفزازى.

وقد يقولون : إن العصر الأموى ليس أول من افترع بكارة فن النقائض، فقد كانت للجاهليين نقائض - كما قيل - فى يومى الكلاب الأول والكلاب الثانى، وكانت للإسلاميين - فى صدر الإسلام - نقائض، دارت رحاها بين مدرسة المدينة، وعلى رأسها : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة، ومدرسة مكة وعلى رأسها : عبد الله ابن الزبعرى وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث، ونقول لهم: على رِسْلكم! فهذا الذى وجد قبل العصر الأموى فى الجاهلية وصدر الإسلام لم يكن إلا ضربا من فن الهجاء، وشعراؤه لم يتقيدوا غالبا فى ردهم على خصومهم بقصائد من نفس الأوزان والقوافى التى صاغ فيها الخصوم، وأنه لم يكن منظما، بحيث يكون مستمرا ومتصلا، وإنما كان هجاء منقطعا، يظهر تبعا لنشوب حروب وأيام بينهم، وأنهم لم يشافهوا به الخصوم كما كان يحدث فى النقائض، ومن ثم فلا نطلق عليه نقائض، وإذا أطلقنا عليه هذا الاصطلاح فيجب أن يكون على سبيل التجوز لا الحقيقة، علاوة على أننا إن قلنا بذلك، فالذى وجد فى الجاهلية إنما هو من قبيل النقائض القبلية، وفى عصر النبوة من قبيل النقائض الدينية، أما النقائض الأموية فهى :

فن سياسىّ وأدبىّ جديد نشأ تحت تأثير الحاجة إليه فى شئون السياسة والعصبية والأدب، وعلى هذا فالجانبان: السياسىّ والأدبىّ منه جديدان كل الجدة، أما الجانب القبلى الاجتماعى فهو تطور للجدل القبلى الجاهلى. أى أن الهجاء القديم كان بذورا لهذا اللون الجديد الذى نقرأه عند الفرزدق وجرير والأخطل هؤلاء الذين استحالت على أيديهم صورة الهجاء القديمة إلى صورة النقائض.

وقد دعا إلى هذا الفن ونماه نموا واسعا فى العصر الأموى حاجة المجتمع العربى، خاصةً فى البصرة إلى هذا اللون، ليقطع به الناس أوقات فراغهم، فقد كان ضربا من التسلية واللهو، حفلت به سوق المرْبد

والكُناسة - واحتشدت جماهيره تصفق وتهلل وتصيح، إلى جانب إظهار الشعراء لتفوقهم ومقدرتهم الفنية، وكذلك نموّ العقل العربى - فى هذا العصر - ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة؛ والمطلع على النقائض الأموية يجد أنه إزاء مناظرات شعرية، وهى مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحًا لها، يذهب إليها الشعراء ويتحلق الناس من حولهم، ليروا من تكون له الغلبة والتفوق، فقد جمعت إذن بين الإمتاع والإبداع، ولذلك أصبحت النقائض عملا فنيا معقدا له خطره وكيانه، وهو فى كل أبعاده متأثر بالحيوات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وقد كانت النقائض ظاهرة نفسية طبعية، وطورا فنيا راقيا. وأبرز من وقفوا أنفسهم على تنمية تلك النقائض، مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه: جرير والفرزدق والأخطل، وقد اشتدت المعارك بينهم، ودخل فيها كثير من الشعراء، وقد جمع أبو عبيدة نقائض أعلامها، وفى أوائل القرن العشرين عرفتها البيئات العلمية حين نشر «أنتونى أشلى بيفان» نقائض جرير والفرزدق فى ثلاثة أجزاء، ابتداءً من سنة ألف وتسعمائة وخمس حتى سنة ألف وتسعمائة واثنتى عشرة للميلاد (١٩٠٥ - ١٩١٢) وتبعه على الطريق

«الأب أنطون صالحانى اليسوعى «فنشر نقائض جرير والأخطل فى سنة ١٩١٢، فكان نشر هذين الديوانين نعمة كبيرة ومنة عظيمة على الدراسات الأدبية فى الشرق العربى. ونقائض العصر الأموى فيها تعبير الشعر عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقلية وروحية، فهى ليست أهاجى بالمعنى القديم وإنما هى مناظرات أدبية أوجدتها ظروف اجتماعية وسياسية وأخرى عقلية، إلى جانب المنافسة الأدبية، فهى تمثل الشعر الأموى خير تمثيل، وتصوره تصويرا دقيقا واضحا؛ وتتميز النقائض بما سادها من روح الإسفاف والإغراق والمبالغة، ونهش الأعراض والتعرض للحرمات، والإلمام بتاريخ العرب وأيامهم، والوقوف على أحسابهم وأنسابهم، فهى تمثل حربا أدبية، ومما يمثل النقائض، ما رواه أبو عبيدة معمر بن المثنى قال: وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما وركب فرسا، فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا، وأقام ينشد فى جرير قائلا: - والناس يسعون بينهما بأشعارهما :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية

وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

وهل تلبس الحبلى السلاح وبطنها

إذا انتطقت عبء عليها تعادله

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق فى ثياب وشى وحرير قال :

لبست أداتى والفرزدق لعبة

عليه وشاحا كرج وجلاجله

أعدوا مع الحلى الملاب فإنما

جرير لكم بعل. وأنتم حلائله

وأعطوا كـــمـــا أعطت عـــوان حليلهـــا

أقـــرت لبـــعل بعـــد بعل تـراسله [١]

• • •

وكان الفرزدق وجرير يحجان مع سليمان بن عبد الملك، فأتى له بأسرى من الروم، فدفع ببعض الأسرى إلى وجوه من معه ليقتلوهم، ودفع إلى جرير رجلا منهم فقتله، ثم دفع إلى الفرزدق رجلا فضربه بسيف فنبا، ولم يغن شيئا. فقال جرير :

تحـرض يا ابن القـين قـيـسـا ليـجـعلوا

لقـــومك يومـــا مـــثل يوم الأراقم

بســيف أبي رغـــوان ســيف مـــجاشع

ضـــربت، ولم تـضــرب بســيف ابن ظالم

ضـــربت به عند الإمـــام فـــأرعـــشت

يداك، وقـــالوا : مـــحـــدث غـــيـــر صـــارم

فقال الفرزدق ناقضا قوله :

وهـل ضــــربة الرومي جــــاعلة لكم

أبا عـن كـليـب أو أبا مـــــثل دارم ؟!!

كـذاك ســيـوف الهند تنبـو ظبـاتهـا

وتقطـع أحـــيـــانا مناط التـــمـــائم

ومـــا نقـــتل الأســـرى ولكن نفكهم

إذا أثقـل الأعنـاق حـــمـل المغـــارم

• • •

---

١ - الكرخ : لعبة أطفال على هيئة المهر . الملاب : العطر .

وظل الشاعران الكبيران يتقاذفان هذه النقائض حقبا متطاولة، فلم تخمد جذوتها بينهما منذ اشتعلت، وتفنن كل من الشاعرين فى القذف والسب، ولوّنا الهجاء بألوان عقلية حديثة، ولم يرع كل من الشاعرين فى حق الخُلُقِ إلاً ولاذمة، حتى وصل الأمر بهما إلى هتك ستر الموتى فضلا عن الأحياء، فجرير عندما رثى زوجته بقصيدته التى منها :

لولا الحياء لهاجنى استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولهت قلبى إذ علتنى كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار

ولقد أراك كسيت أجمل منظر
ومع الجمال سكينة ووقار

صلى الملائكة الذين تخيروا
والطيبون عليك والأبرار

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار

يتدنى الفرزدق فى الهجاء إلى الدرك الأسفل، الذى لا تسيغه رجولة، فينقض رثاء جرير لامرأته، ويهجوها هجاء مقذعا. دون أن يرعى للميت حرمة، ولا للمرأة كرامة : قائلا :

كانت منافقة الحياة وموتها
خزى علانية عليك وعار

فلئن بكيت على الأتان لقد بكى

جزعاً غداة فراقها الأعيار

تبكى على امرأة وعندك غيرها

قعساء ليس لها عليك خمار

وليكفينك فقد زوجتك التى

هلكت موقعة الظهور قصار

إن الزيارة فى الحياة ولا أرى

ميتا إذا دخل القبور يزار !!

• • •

بيد أنه بين الحين والحين كان بعض الشعراء يحاول أن يقتحم الميدان. فلما يلبث أن يسقط فيه، وبعضهم ينتصر، غير أن أكثر المنتصرين كانوا فى صف الفرزدق، نظراً لتفوقه فى أسرته ومكانته الاجتماعية، ومنهم الراعى النميرى انتصر للفرزدق فقال :

يا صاحبىَّ دنا الرواح فسيرا

غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

فيثور عليه جرير ويقول فيه من قصيدته البائية :

أقلى اللوم عاذل والعتابا

وقولى إن أصبت لقد أصابا

فغضّ الطرف إنك من نمير

فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فلو وضـعت فـقـاح بنى نميـر

علـى خـبـث الحـديـد إذن لـذابـا

ولـو وطـئـت نـسـاء بـنـى نمـيـر

عـلى تـرب لأخـبـثـت الـتـرابـا

فـلا صـلـى الإلـه عـلـى نمـيـر

ولا سـقـيـت قلوبـهـم سـحـابـا

أنـا الـبـازى المـطـل عـلـى نمـيـر

أتـيـح لـهـم مـن الجـو انـصـبـابـا

ولما برز الأخطل إلى ساحة الوغى ، وفضّل الفرزدق وهاجى جريرا بقوله :

يـا ابـن المـراغـة إن عـمـىَّ الـلـذا

قـتـلا المـلـوك وفـكـكـا الأغـلالا

فـانعـق بـضـأنك يا جـريـر فـإنمـا

منَّتْك نـفـسـك فى الخـلاء ضـلالا

منـتـك نـفـسـك أن تـكـون كـدارم

أو أن تـوازى حـاجـبـا وعـقـالا

قال جرير هاجيا ناقضا موجعا :

إنـى جـعـلـت فـلـن أعـافـى تغـلـبـا

لـلـظـالمـيـن عـقـوبـة ونـكـالا

قـبـح الإلـه وجـوه تـغـلـب إنـهـا

هـانـت عـلـى مـراسـنـا وسـيـالا

قـــبح الإلـه وجـــوه تـغـلب كـلمـــا
شـــبح الحـــجـــيج وكـــبـــروا إهلالا
المعـــرســـين إذا انتـــشـــوا ببناتهم
والـدائـنـيـن إجـــــارة وســـــؤالا
والتـــغلبيُّ إذا تـنحنـح للقــــرى
حكَّ استـــه وتمثل الأمــــثـــالا
ولوانَّ تغلب جـــمـــعت أنســـابـهـــا
يوم التـــفـــاضل لم تزن مـــثـــقـــالا
لا تـطـلـبن خـــــؤولـة فـي تـغـلـب
فـــالزنج أكـــرم منـهـم أخـــوالا

• • •

وهكذا كانت النقائض التى كان العصر الأموى أبا عذرتها، وكان شعراؤه الأعلام روادها ومحككيها.

• • •

الأراجيـز

الرجـز بحـر عـروضـى، سـمـى بهـذا لأن وزنـه - كـمـا روى عـن الخليـل ابـن أحـمـد - مـضـطـرب اضطراب قـوائم الناقـة الـرجـزاء عند القـيـام [١]: إذ إن الرجز في الأصل اللغوى: اضطراب رجل البعير أو فخذيه إذا أراد القيام.

ويتـسم فنه عند الشـعـراء بتـصـريع جـمـيع أبيـاته، طالت الأرجـوزة أو قصـرت، فالأراجيـز هي التى صـيغت فى أوزان بحـر الرجـز المشـطور؛ وهذا الفن قديم عرفه شعراء الجاهلية، ويبدو أن وزنه كان شعبيـا عاما يدور على كل لسان، وأنه لهذا قلما استعمله نوابغ الشعراء ترفعا بمنزلتهم عن منزلته، وتركوه لمن دونهم من الجمهور، ومن هنا كثر فيه الزحاف، والمشطور والمنهوك، ولم يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادرا، فقد كان قطعا صغيرة يقولها الناس فى الهجاء أو فى الحروب وحداء الإبل، وظل هذا حال الرجز حتى كان القرن الأول للهجرة فشرع بعض فحول الشعراء ينظمون الشعر فى ذلك البحر. وكان أول من أطال الرجز الأغلب العجلى المخضرم، وليس - كما يقول بعض الباحثين - العجاج، بدليل شهادة العجاج نفسه حين قال مفتخرا :

وإن يكن أمـسـى شـبـابى قـد حـسـر

وفـتـرت منى البـوانى وفـتـر

إنى أنا الأغلب أضـحى قـد نشـر

يريد أنه أحيا طريقة شعر الأغلب العجلى [٢].

---

١ - الناقة الرجزاء: هى الناقة التى يرتعش فخذاها عند النهوض.

٢ - انظر: تاريخ الآداب العربية: لكارل نالينو ص ١٨٧ وما بعدها.

وما يكاد العصر الأموى يطل، حتى يكثر الرجز، ويقصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده والنهوض به، ويمدون أطناب طاقته مدًا واسعا، وطالت الأرجوزة على أيديهم طولا جعلها تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمط بنائها الفنى، ومن هؤلاء إلى جانب الأغلب والعجاج، الشمردل ابن شريك ورؤبة بن العجاج، وأبو النجم وأبو نخيلة، ودكين، وغيرهم.

وقد كان أسلوب الأراجيز أثرا واضحا من آثار البدوية الجاهلية، حافلة بأوابد اللغة وشوادرها مليئة بكل غريب شاذ فيها، فهى وحشية الألفاظ متوعرة الأساليب غالبا.

من ذلك قول رؤبة فى مطلع أرجوزة له، يصف المفازة والرياح التى تعوى بها والسراب الذى يملأ أركانها - وهذا المطلع هو أسهل ما فى هذه الأرجوزة - :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق
مشتبه الأعلام لماع الخفق
يكلّ وفد الريح من حيث انخرق
شأز بمن عوه جدب المنطلق
ناء من التصبيح نائى المغتبق
تبدو لنا أعلامه بعد الغرق [1]

ولعلهم بهذا الإغراب كانوا يرضون ذوق اللغويين وحاجتهم، الذين

---

١ - قاتم: أسود. الأعماق: جمع عمق وهو ما بعد من أطراف المفازة الموصوفة، ومخترق الرياح: مهبها. وخواؤه: خلوه. مشتبه الأعلام: جبال متشابهة. ولماع الخفق: السراب. وفد الريح: أولها. انخرق: هب. وشأز: غليظ. وعوه: أقام. جدب المنطلق: ما يمر به يكون جدبا. وناء من التصبيح: لا ماء فيه يورد بكرة، ونائى المغتبق: لا ماء فيه يورد عشية. تبدو لنا أعلامه بعد الغرق: يعنى أنها تغرق فى السراب ثم تبدو وكأنها تسبح.

وقروهم لإتيانهم بالغريب أعظم التوقير، بدليل قول أبى الفرج فى ترجمته لرؤبة بن العجاج - صاحب متون اللغة - : «أخذ عنه وجوه أهل اللغة، وكانوا يقتدون به، ويحتجون بشعره، ويجعلونه إماما» وفى ديوان رؤبة إشارات تؤكد هذه الحقيقة، كقوله :

«يلتمس النحوىّ فيها قصدى» وقوله مفتخرا بأن مبلغ علمه فى اللغة لن يرقى إليه نحوىّ :

لا ينظر النحوىّ فيها نظرى

وهو دهى العلم والتعبر

ومن الرجاز من كان لا يبعد فى رجزه ولا يغرب، كأبى النجم العجلى. وبخاصة حين يقصد إلى التندر والدعابة، من ذلك قوله يوصى ابنته «برة» عند زواجها :

أوصيت من برة قلبا حرا

بالكلب خيرا والحماة شرا

لا تسأمى ضربا لها وجرا

حتى ترى حلو الحياة مرا

وإن كستك ذهبا ودرا

والحىّ عميهم بشر طرا !!

وقوله لأختها :

سبِّى الحماة وابهتى عليها

وإن دنت فازدلفى إليها

وأوجعى بالقهر ركبتيها

ومرفقيها واضربى جنبيها

وظاهرى النذر لها عليها

لا تخبرى الدهر بذاك ابنيها

وقد حطب الرجاز فى سوق السياسة، حيث كانت لهم أطماعهم أو منافعهم الخاصة فمدحوا فى سبيلها وهجوا، وتقلبوا مع موازينها، من ذلك قول العجاج فى مصعب بن الزبير الذى كان معه على المختار بن أبى عبيد الثقفى :

لقد وجدتم مصعبا مستصعبا

حتى رمى الأحزاب والمحزبا

وابن أبى عبيد المكذبا

والسبئى والمراشى المذنبا

بحاجبى سبعين ألفا معربا

موجا ترى قد موسه مكوكبا

قد علم المختار إذ جد الجبا

وبلغ الماء حلاقيم الزبى

من ذا الذى غيق تغيق الصبا

ورئم الحشف الذى كان أبى

ولما قتل مصعب قال :

زل بنو العوام عن آل الحكم

وشنأوا الملك لملك ذى قدم

إن بـنـي مـــــروان ضـــرابوا البـــــهم

والقـــاتلون من عـــصى إذا اعـــتـــقم

ديـنـا ســــــوى الحق إلى أمـــــــر أمم

كـلـهـم يـنـمـى إلى عـــــــز أشم !!

• • •

النثر
فى ظلال الأمويين

تطلق كلمة النثر فى الحقل الأدبى ويراد بها النثر الفنى الذى يحفل بإشراق الديباجة وروعة التأثير، وجمال التلوين الأسلوبى وحلاوة النغم التركيبى والتصويرى، وقوة الحجة وفلج البرهان، لأنه إذا كان الشعر لغة العاطفة فإن النثر لغة العقل.

فليس كل كلام خلا من الوزن والقافية نثرا أدبيا. ومن ثمَّ فإن الأحاديث العادية اليومية - أو لغة التخاطب - لا تعد أدبا إلا إذا ضمت بين حواشيها وثناياها أمثالا وحكما، أو تصويرا دقيقا للحياة.

والنثر الذى نحن بصدد الحديث عنه - فى ظل بنى أمية - ينقسم إلى قسمين: خطابة وكتابة. ذلك أنه إذا كان القصد منه مخاطبة الجمهور أو القوم رغبة فى التأثير أو الإقناع، سواء أحُبِّر هذا القول وأعدَّ، أم ابتكر وارتجل، فهو الخطابة، وإذا كان القصد منه مخاطبة العقول والمشاعر، بعيدا عن المشافهة والمواجهة فهو الكتابة.

وقد حفل العصر الأموى بالشعر والخطابة معا، فكانا فيه فرسَى رهان، فلم يحظ الشعر بالمكانة السامية وحده، كما كان فى العصر الجاهلى، ولم تحظ الخطابة بهذه المكانة وحدها كما كان فى صدر الإسلام، وإنما تقاسما المكانة فى عصر كان عصر خطابة وشعر. وإن شئت قلتَ: عصر شعر وخطابة. كذلك زهت الكتابة وخطت فيه خطوة فسيحة أوجدت الكتابة العلمية الديوانية.

والخطابة والكتابة ضربان من ضروب النثر الأدبى، إلا أن عماد الخطابة اللسان، وعماد الكتابة القلم.

الخطابة(*)

جاء الإسلام فأشرق جبين الدهر وأضاء وجه الخطابة، فقد كانت دعوته العظمى من أهم الأسباب التى بلغت بالخطابة غاية كمالها، وأقامت الأمر فى يد رجالها، واتسعت أغراضها. واعتمدوا عليها فى الدين والسياسة، ووجدت فى آى الذكر الحكيم وحججه وأحاديث الرسول عليه السلام وحكمه معينا لا ينضب ومددا لا ينفد فازدهرت وأينعت.

واتسمت فى هذا العصر بعذوبة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وقوة التأثير، والاقتباس من القرآن الكريم. والسير على منهجه فى الإرشاد والتوجيه والإقناع، والابتداء بحمد الله والصلاة على رسوله.

وحين أظل الناسَ عصرُ الأمويين ازدهرت الخطابة أيما ازدهار، وذلك بسبب العوامل الباعثة على ذلك وتضافرها، فقد كثرت الأحزاب السياسية، وتعددت الفرق الدينية، وراجت فى الساحة الإسلامية ألوان مختلفة من الصراع، مما كان سببا فى كثرة الفتن والثورات ونشوب المعارك والحروب، والكلام يسبق الحرب؛ فللأحزاب أفكار تقوم على الجدل الدينى والسياسى، وكما كانت تتحارب بالسيف والسِّنان كانت تتحارب باللسان، وكل حزب

★ - تدور مادة «خَطَبَ» فى كتب اللغة حول استعمالات عدّة، ومنها «خَطَب» القوم وعليهم وفيهم «يَخْطُبُ» «خُطبة» بضم الخاء «وخطابة» بفتح الخاء، وجمعها «خُطَب» بضم ففتح، فهو «خطيب». والجمع «خطباء» وخطُب بفتح فضم «خطابة» صار «خطيبا» ويقال: فلان «أخطب القوم» أى هو أفصحهم وأكثرهم إبانة..

والخُطبة عند العرب: الكلام المنثور، يخاطب به متكلم فصيحٌ جمعًا من الناس لإقناعهم والتأثير فيهم. ومنها: «خطب الرجلُ المرأة يخْطُبها «خِطْبة» وفى القرآن الكريم: «من خطبة النساء» ويقال: خطبها إلى أهلها، أى: طلبها للزواج، فهو خاطب وخَطّاب - مبالغة - والجمع: خُطّاب. وهكذا..

يحتجُ لرايه، وينتصر لمذهبه، ويهيج العواطف، ويثير المشاعر، ثم إن معاوية مؤسس الدولة قد ضمن حرية القول، ما لم يَحُلْ بينه وبين الملك، وهذه الحرية جعلت بعض الناس يجرؤ على الخليفة فيرد عليه قوله وهو يخطب، حتى اضطر عبد الملك بن مروان أن يقول وهو على المنبر لمن قال له: اتق الله: من قال لى اتق الله بعد يومى هذا ضربت عنقه.

وذكروا أن أعرابيا شهد أمام معاوية بشئ كرهه، فقال له كذبت يا أعرابى، فقال الأعرابى: الكاذب والله المتزمل فى ثيابك، فتبسم معاوية وقال: هذا جزاء من عجل.

تمام الملكات ونماء القرائح وقوة البيان، وقد وجد فى هذا العصر من ساموا السابقين فى البلاغة وقوة العارضة، لأن القوم كانوا عربا خلصا فقد كانوا ينشئون أبناءهم فى البادية، وكان لهم غرام بالجاهلية وأدبها، على أن ناحية أخرى لا يجوز التغاضى عنها كان لها أثرها فى هذا النمو وهذه السعة هى: اختلاط أبناء العرب بأبناء الأمم المفتوحة من الفرس والروم والقبط، وما منها إلا ذات علم وفلسفة وحضارة وتقدم.

كذلك فإن ولع القوم فى صدر الإسلام بنهج القرآن الكريم والحديث الشريف وأسلوبهما البيانىَ قد تضاعف أثره وجلَ شأنه فى العصر الأموى، إذ أينع الثمر وتم النضج وزادت الغلة، حيث نشر القرآن والحديث فيه نشرا، وذاعا ذيوعا مستفيضا. وكان للوعظ الدينى أثره الذى لا يجحد، فلم يدع جانبا إلا هزه، ولا قلبا إلا دخله، وقد كانت الأمة - آنذاك - فى حاجة ماسة إلى هذا اللون من الخطابة لضعف الوازع الدينى، وقد أثمر ثمرته بعد أن رتب معاوية الوعاظ فى المساجد، بعد أن كان حكرا على الأئمة والولاة، وإلى قوم من التابعين أهل

ورع وصلاح يرجع الفضل فى وعظ الناس وإرشادهم، من أمثال: محمد بن سيرين والحسن البصرى.

كان لهذا كله أثره فى ازدهار الخطابة السياسية والدينية والاجتماعية وكان للنثر بعامة وللخطابة بخاصة فى العصر الأموى دولة أى دولة، ومنزلة لا تساميها منزلة، وعرف العصر فى أحزاب: الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين خطباء مصاقع وألداء مقاول. لا يحصون كثرة رجالا ونساء، كذلك شاعت الخطابة فى القبائل على اختلاف أصقاعها، ولا أدل على ذلك من أن أحد فرسان الخطابة العربية - هو سحبان وائل المتوفى سنة أربع وخمسين من الهجرة - قد خطب فى حضرة معاوية ووفد خراسانى من لدن صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر، ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ. ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى فيه شئ، وعندما قال له معاوية: أنت أخطب العرب: قال سحبان: والعجم والجن والإنس. فالعصر الأموى يعدّ بحق العصر الذهبى للخطابة العربية.

وما برح الخطباء فى العصر الأموى تلك العادات التى كانت فى الجاهلية، من: لوث العمامة - اعتجارها - واتخاذ المخصرة، والعصا، والوقوف على نشز من الأرض، والاشتمال بالرداء والخطبة من قيام، وظلت هذه العادة مرعية حتى كان الوليد بن عبد الملك فخطب جالسا: ولعل الدافع له إلى تلك المخالفة، زغبته جملة عن مواقف الخطابة، وعدم اعتداده بالاحتفال بها، لما كان يعتريه من اللحن الذى يشوه قوله ويلفت الأنظار إليه.

• • •

أنواع الخطابة :

الخطابة باعتبار الموضوع والهدف تنقسم إلى ثلاثة أقسام : خطابة سياسية ، ودينية ، واجتماعية .

(أ) الخطابة السياسية :

أدت حدة الصراع واحتدامه بين الأحزاب المتنافرة إلى الخطابة السياسية ، فأفصحت عن أحوال الأحزاب المتصارعة حول الحكم ، إذ كان لكل حزب خطباؤه ، كما كان له شعراؤه ، يدافعون عنه ، ويفصحون عن مبادئه . ويعلنون أحقيته بالخلافة ، ويناوئون الأحزاب الأخرى ، وينالون منها ، وبات كل حزب يدفع الآخرين وينحيهم ، فبرزت فى خطبهم النزعة السياسية .

وقد غلب على هذا اللون من الخطابة : التحرر من التقاليد الدينية ، كثرة الاستشهاد بالشعر ، عدم الاحتفال بالاقتباس من القرآن الكريم - فقد كان الشعر أطوع لرجال السياسة ، تلك التى كانت - فى العصر الأموى - نزاعة إلى الشك ، ميالة إلى الطغيان - وغلا بعضهم فترك الحمد فى مستهل خطبته ، كما صنع زياد بن أبيه فى خطبته المعروفة بالبتراء [1] .

المبالغة فى السب والإسراف فى الشتم ، نتيجة إمعانهم فى الخلاف السياسي ، حتى إن معاوية كان قد استَنّ سنة سيئة تمثلت فى سبِّ علىّ - رضى الله عنه - فوق أعواد المنابر ، وأغرم بها الأمويون من بعده ، إلى أن كان عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه فعدل عنها وأبطلها ، وجعل مكانها قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وقد عرف له الشيعة هذا الفضل فأثنوا عليه ، وقال فيه كثيّر عزة :

---

١ - سميت كذلك لأنه لم يحمد الله فيها ، والبتراء المقطوعة المشوّهة .

وَليتَ فلم تشْتُم عليًّا، ولم تُخفْ

بريًّا، ولم تتبع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وإنما

تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت معروف الذى قلت بالذى

فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم

• • •

كما كان يغلب على هذا اللون من الخطابة: ضخامة اللفظ وفخامته، وشدة الأسر وقوته، فالألفاظ أصلب عودا وأشد مكسرا، والتراكيب أوضح جزالة وأكثر ضخامة، لتساوق المعانى فى العنف والوعد والوعيد والتهديد والتحذير والسبّ والذم.

ولقد راج هذا اللون من الخطابة، وكثر فرسانه الذين كان من أبرزهم: الحسن والحسين، وزيد بن علىّ، وعبد الله بن معاوية، وعبد الله بن عباس، وغيرهم من الشيعة، وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير، من الزبيريين، وقطرىّ بن الفجاءة، وعمران بن حطان، وأبو حمزة الشارى وغيرهم من الخوارج، ومعاوية بن أبى سفيان، وعتبة وزياد بن أبيه، وعبد الملك بن مروان، والحجاج، وغيرهم من الأمويين.

وقد تبارى خطباء السياسة فد قدح زناد الفكر، لاستنباط الحجج وإصابة مواطن التأثير، فأفاد الخطابة وقوّاها، ونماذجها تكشف عن ذلك وتشهد: خطب زياد بن أبيه حين قدم البصرة واليًا من قبل معاوية سنة خمسٍ وأربعين من الهجرة، والفسق كان قد تفشّى فيها، خطب خطبته البتراء، والتى منها:

أما بعد، فإن الجهالة الجَهْلاء، والضلالة العمياء [١] والغَيَّ الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حُلماؤكم، من الأمور التي يَنْبُتُ فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول [٢].

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا [٣] وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف يقهر، والضعيفةُ المسلوبةُ بالنهار المبصر لا تنصر، وهذه المواخير المنصوبة [٤] والجمع غير قليل، ألم يكن منكم نُهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل [٥] وغارة النهار ؟! قرَّبتم القرابة، وباعدتم الدين!! تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرئ منكم يرد عن سفيهه، صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا! ما أنتم الحلماء.

حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسويَها بالأرض هدما وإحراقا، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صَلُحَ أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لآخذنَ الوليَّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنجُ سعدٌ فقد هلك سُعَيد، أو تستقيم لي قناتكم، إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامنٌ لما

١ - الجهلاء: الشديدة. والعمياء: التي يعمى فيها الناس، وفي نسبة العمى إليها مجاز عقلي.
٢ - السرمد: الدائم.
٣ - طرفت عينه الدنيا: صرفته إليها فأصبح لا يعنى بغيرها.
٤ - المواخير: جمع ماخور وهو بيت الريبة.
٥ - دلج الليل: السير في أوله، والعبارة كناية عن التلصص.

ذهب منه، فإيَّاىَ ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدْلج إلا سفكت دمه، وإيَّاى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه.

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن أغرق قوما أغرقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه، ومن نَقَب بيتا نَقَبْنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه، فمن كان محسنا فليزدد فى إحسانه، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته، ورب مبتئس بقدومنا سيسَر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفئ الله الذى خوَلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا،... ثم ختم الخطبة بقوله: وأيْم الله إن لى فيكم لَصَرْعَى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى!!

وقدم الحجاج بن يوسف الثقفى أميرا على العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة بعد قتله ابن الزبير بالحجاز، فدخل الكوفة قبل البصرة، فيَمَّ المسجد ودخله معتَمًا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر وهو متقلد سيفه متنكب قوسه، ومكث ساعة لا يتكلم، حتى لغط الناس، وهمَّ عمير بن ضابئ البرجمى أن يرجمه، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره، فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه، حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفونى [١]

---

١ - البيت لسحيم الرياحى، وابن جلا: الواضح.

يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى !

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم
قد لفها الليل بعصلبى
أروع خراج من الدوى
مهاجر ليس بأعرابى
قد شمرت عن ساقها فشدوا
وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عُرد
مثل ذراع البكر أو أشد
لابدّ مما ليس منه بدّ ! (١)

إني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشنان (٢) ولا يغمز جانبي كتغماز التين (٣) ، ولقد فُررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كنانته بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني أمَرّها عُودا ، وأصلبها

١ - زيم : ناقة أو فرس . والحطم : الجبار الغشوم . والوضم : ما يقطع عليه اللحم . والعصلبى : الشديد القوى . والأروع : الذكى .

٢ - القعقعة : صوت الجلود اليابسة ، والشنان : جمع شن : الجلد اليابس ، والمراد : لا أفزع ولا أخاف .

٣ - التين : الفاكهة المعروفة اللينة الملمس ، يريد أنه ليس بضعيف ولا لين الجانب .

مَكْسـرا، فـرماكـم بى، لأنكم طالما أوضـعتم فى الفـتنة، واضطجـعتم فى مـراقـد الضـلال (١).

والله لأحْـزمنَّكم حَـزْمَ السَّلَمـة (٢)، ولأضـربنّكم ضـرب غـرائب الإبل، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإنى والله لا أقول إلا وَفَّيْت، ولا أَهُمُّ إلا أمضيت.

• • •

(ب) الخطابة الدينية:

نمت الخطابة الدينية فى حضن الدعوة الإسلامية، فالدعوة إلى الدين، والحث على التمسك بمبادئه، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، كل أولئك من أغراض هذا اللون من الخطابة، فلما كان العصر الأموى ازدادت الخطابة الدينية نموا وازدهارا، نتيجة اتساع رقعة الوعاظ بعد أن رتب الأمويون أناسا يعظون فى المساجد، فشاع الوعظ وعم الإرشاد، ولم يعد وقفا على الأئمة والولاة؛ وتصدِّيا لألوان من المجون ظهرت تبعا لتطور العصر، وسيطرة الحياة المادية، هبّ الوعاظ وبعض العبّاد والعلماء يذكرون ويزهدون ويحذرون من الاغترار بالدنيا، والانخداع بشهواتها وزخرفها الباطل، ويوجهون النفوس إلى الآخرة ونعيمها؛ وغير ذلك من الأفكار الدينية التى ترق لها المشاعر، وتخبت لها القلوب وتطمئن لها النفوس، والتى لم تدع جانبا إلا هزته، ولا قلبا إلا دخلته.

---

١ - فُررت: من فر الدابة إذا كشف عن أسنانها، واللفظة تعنى الاختيار. الكنانة: جعبة السهام. وعجم العيدان: عضها ليختبرها. أوضعتم: أسرعتم.

٢ - السلمة: شجرة شائكة يعسر خرط ورقها، فيشد بعضه إلى بعضه ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها.

وهناك ظاهرة يجدر الإشارة إليها، هى اتّشاح الخطابة الدينية برداء السياسة، فخطباء الأحزاب المناوئة للأمويين كانوا يندّدون بحكام بنى أمية، ويخلعون عنهم الصلاحية للخلافة، لتنكبهم عن جادة الطريق، هادفين من وراء ذلك إلى الإثارة والخروج على الحكام، وقلب نظام الحكم، مستغلين العامل الدينى والعزف على أوتاره فى التأثير على نفوس الناس وأفئدتهم، ويتضح ذلك عند الأحزاب المناوئة، ويبلغ مداه عند الخوارج.

على أنه كانت هناك فئة تعدّ خطباء مذهب وعقيدة لا سياسة وسلطان. منهم: الحسن البصرىّ وواصل بن عطاء ويزيد بن أبان الرقاشىّ، ويعد الحسن البصرى أبرع وأبرز خطيب دينى، يقول الجاحظ فيه: «فأما الخطب فإنا لا نعلم أحدا يتقدم الحسن البصرىّ فيها» ويقول الحجاج حين سئل: من أخطب الناس؟ فقال: «صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة» يقصد الحسن البصرىّ.

ولقد خلع هؤلاء الأعلام وغيرهم على الخطابة فى هذا العصر ثوبا قشيبا، وأظهروا ما كان من مزاياها فى صدر الإسلام بارزا مجسما، من فصاحة فى االألفاظ، وبلاغة فى المعانى، وتنويع فى الأساليب، وجلال تأثير فى النفوس؛ كذلك اتسم هذا اللون من الخطابة: بالتزام الحمد فى أول الخطبة، والصلاة والسلام على رسول الله، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم، والاستشهاد بآيه، إلى حد أن بعض الخطباء كان ينتزع منه خطبته كلها، فيصيب بها ما يريد، ويربو على ما يريد، كخطبة مصعب بن الزبير حين قدم العراق واليا عليها من قِبَل أخيه عبد الله الخليفة بالحجاز، وعبد الملك يومئذ خليفة بالشام وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿طسٓمٓ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وأشار بيده نحو الشام.

ثم قال: (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، وأشار بيده نحو الحجاز.

ثم قال: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وأشار بيده نحو العراق. ثم نزل.

وقد أثْرَت الخطابة الدينية الخطابة عامة من جهة التفكير المنسق العميق، والتعبير الواضح الدقيق، ومن نماذجها إلى جانب ما تقدم قول الأوزاعى:

«اتقوا الله معشر المسلمين، واقبلوا نصح الناصحين، وعظة الواعظين، واعلموا أن هذا العلم دين، فانظروا ما تصنعون، وعمن تأخذون، وبمن تقتدون، ومن على دينكم تأمنون، فإن أهل البدع كلهم مبطلون، آفاكون آثمون، لا يرعون ولا ينظرون ولا يتقون، ولا مع ذلك يؤمنون على تحريف ما يسمعون».

خطب عمر بن عبد العزيز يوما، فكان من خطبته قوله:

«ما الجزَع مما لابدّ منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة مما سيزول؟! وإنما الشئ من أصله، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ إنما الناس فى الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نهْب للمصائب مع كلّ جرعة شَرَق، وكلّ أكلة غَصَص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجَله، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم. فأين المهرب مما كان؟».

ومن قوله فى آخر خطبة له، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس!

إنكم لم تُخْلَقوا عبثا، ولم تُتْرَكوا سُدًى: وإن لكم معادا يتولى الله فيه الحكم فيكم، والفصل بينكم؛ فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعتْ كل شئ... واعلموا أن الأمان غدا لمن حَذِر الله وخافه، وباع قليلا بكثير، ونافدا بباق. ألا تَرَوْن أنكم فى أسلاب الهالكين وسيَخْلُفُها من بعدكم الباقون كذلك حتى تُردّوا إلى خير الوارثين؟!».

(جـ) الخطابة الاجتماعية:

وهى تعنى خطب المناسبات الاجتماعية، وهذا اللون يتوزع ويتنوع تبعا لبراعنه وأسبابه ومناسباته، فمنه خطب المحافل والوفادات أو السفارات - وكان ينهض بها رؤساء الوفود الوافدة على الحاكم لأمر ما، كالمبايعة، وإظهار الطاعة، أو طلب الرِّفْد والاستجداء، أو الشكر على معروف، أو التظلم والشكوى، أو التهنئة أو التعزية.

ومنه خطب الأملاك، تلك التى تلقى فى محافل عقود الزواج، وخطب المفاخرات، والتى تعبر عن صراع القبائل، وخطب التعزية والتأبين، وخطب الإصلاح بين المتخاصمين، ومن نماذج الخطابة الاجتماعية خطبة الأحنف بين قيس زعيم البصرة، أمام معاوية نائبا عن قومه.

«يا أمير المؤمنين! أهل البصرة عدد يسير، وعظم كسير، مع تتابع من المحول، واتصال من الذحول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمقل قد أملق، وبلغ منه المخنق، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير، ويجبر الكسير، ويسهل العسير، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء، ويزيل اللأواء، وإنَّ السيد من يعُمّ ولا يخص، ويدعو الجَفَلَى، لا يدعو النقرى، وإنْ أحسن إليه شكر، وإن أسئ إليه غفر، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عمادا يدفع عنهم الملمات، ويكشف عنهم المعضلات».

وخطبة سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية أمام معاوية - وكانت من أنصار عليّ رضى الله عنه، والتى منها : «يا أمير المؤمنين إنك للناس سيد، ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تُقْدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط سلطانك فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا ابن ارطأة [1] قدم بلادى، وقتل رجالى، وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته عنا فشكرناك، وإما لا فعرفناك. فقال معاوية : إيّاى تهددين بقومك؟ والله لقد هممت أن أردك على قتب أشرس [2] فينفذ حكمه فيك، فسكتت ثم قالت :

صلى الإله على رُوح تضمنه
قبر، فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى له ثمنا
فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك؟ قالت : على بن أبى طالب، رحمه الله، قال : ما أرى عليك منه أثرا، قالت : بلى، أتيته يوما فى رجل ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائما يصلى، فانفتل من الصلاة، ثم قال : - برأفة وتعطف - ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

---

١ - هوبسرين أرطاة، أرسله معاوية فى خلافة على إلى الحجاز ثم اليمن ليستولى عليها ففعل بهما الأفاعيل.

٢ - القتب : الإكاف الصغير، والأشرس : الخشن الغليظ، وهو صفة البعير.

«بسم الله الرحمن الرحيم... ﴿ قد جئناكم ببينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك، حتى يأتى من يقبضه منك... والسلام» فأخذته منه يا أمير المؤمنين، ما خزمه بخزام، ولا ختمه بخاتم.

فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها، فقالت: ألى خاصة، أم لقومى عامة؟؟ قال: وما أنت وغيرك؟ قالت: هى والله إذًا الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلا شاملا، وإلا يسعنى ما يسع قومى، قال: هيهات! لمظلكم [1] ابن أبى طالب الجراءة على السلطان، فبطيئا ما تفطمون، اكتبوا لها بحاجتها».

• • •

الخصائص الفنية للخطابة:

تهدف الخطابة إلى التأثير والإقناع، وطريق التأثير هو العاطفة وما يؤججها ويلهبها ويؤثر فيها من خيال محلق ممتع، وتصوير بيانى دقيق، ونسق موسيقى أخاذ، وتلوين أسلوبى رائع، وطرق الإقناع هو العقل وما يحركه ويقتضيه من منطق سليم، وجدل قوى، وحجة دامغة، واستدلال راسخ، وخطباء العصر الأموى قد أحاطوا خبرا بهذه القضية، فلاحت فى خطبهم ظاهرة «التنسيق والترتيب» إذ جمعت بين المقدمات والنتائج، بقصد الجمع بين الفائدة والتأثير، وبرز فيها الاحتجاج المنطقى والاستدلال العقلى.

وتميزت خطبهم بالوحدة «العضوية» فقد جاءت معانيها مرتبة ترتيبا

---

١ - التلمظ: التذوق وتتبع بقية الطعام فى الفم، والمراد عوّدكم.

منطقيا، محكمة النسج، لا حشو فيها ولا اضطراب، متماسكة الفقرات، متلائمة المعانى، مترابطة الأغراض، يسلم المعنى إلى أخيه لا ابن عمه، لتشكل فى النهاية جسما متكامل النسق والأعضاء. تنهض معانيها مجتمعة بالمعنى الكُلّىَ للخطبة، فإذا قَدَّمْتَ فقرة أو أخرتها عن مكانها فى النص، أو حذفتها، أثر ذلك فى صورة الخطبة ونسقها، لأنها خاضعة لنظام ونسق دقيقين.

واتسمت أيضا بالحرص على «الاعتناء بالألفاظ» حيث عنى الخطباء باختيار الألفاظ الدقيقة المهذبة، واستغلال الموسيقى اللفظية. والتى تصدر عن طريق التوافق الإيقاعى كما فى السجع.

كذلك حفلت الخطابة «بالتلوين الأسلوبى» وتنويعه بين الخبر والإنشاء. وبين السؤال والجواب، والنصح والإرشاد، وهكذا.

وأنت إذا ما تتبعت فحول خطباء العصر الأموى رأيت - ويا حسن ما ترى - الجزالة والقوة والأساليب والتراكيب الضخمة والتصوير البارع، وحصدت من أشهى ثمر البلاغة وأزكى قطوف الأدب، وَقَفَزَتْ إلى ذاكرتك صورة الفحول فى الجاهلية، ولكن فى صورة هى أبدع نظاما، وأجزل أسلوبا، وأطرف معنى، وأحكم تنسيقا.

ولا عجب!! ففضل القرآن الكريم والحديث الشريف فى تهذيبهم تهذيبا نفسيا وذوقيا بارز لا يجحد.

المحاورات والأجوبة:

تعد المحاورات والأجوبة ضربا من الخطابة متجددا، جدده وبعثه من رقاده العصر الأموى، فظهر فيه ظهورا واضحا، ملأ الأسماع وامتلك القلوب، بسبب الخلافات السياسية والمذهبية، وحرية الرأى التى سادت فى هذه الحقبة، ولغة هذا

الفن أقرب ما تكون إلى لغة الخطابة، وهو يعتمد على القدرة البيانية، وحضور البديهة، وسرعة الخاطر.

وأدب المحاورة هو بعينه أدب المنافرة والمفاخرة في الجاهلية، الذى كان يقوم على العصبية والنصرة القبلية، والدعاء عن جهل وسفه ونزق بدعوتها، وقد توارى فى صدر الإسلام، لقوة الوازع الدينى فى النفوس، وصرامة القائمين على الأمر. مع قلة الخلاف السياسى، حتى إذا ما تربع الأمويون على العرش، وأحيوا العصبية القبلية، وأججوا نارها منذ عهد معاوية الذى فتح لها الباب على مصراعيه، عاد هذا الفن الأدبى سافرا، باسم وثوب جديدين، لأن اسمه القديم الجاهلى لا يتفق مع مبادئ الدين ونهيه عن تفاخر الجاهلية وتنافرها.

وأصبح فرعا فى دوحة الأدب، له خطره ومكانته ومنزلته، ذلك لأن المتحاور يناجى الفكرة، معتمدا على البديهة وحضور الذهن، لا على التحبير والروية، فينقض القول ويفحم الخصم، وقد برعت قريش فى هذا الفن، فكانت أحضر العرب بديهة، وأسرعهم عند السؤال جوابا، وأشدهم إفحاما.

وإليكم جانبا من هذه المحاورات:

لما اعتزل عقيل بن أبى طالب أخاه عليًا رضى الله عنه لاشتداد فقره، وحرص على، ولجأ إلى معاوية ذى المال الوافر والعطاء الجزل فأكرمه وقضى حوائجه، قال له: أنا خير لك من أخيك على: فقال له: صدقت، إن أخى آثر دينه على دنياه، وأنت قد آثرت دنياك على دينك، فأنت خير لى من أخى، وأخى خير لنفسه منك.

وقال له يوما: إن عليًا غير حافظ لك، قطع قرابتك وما وصلك ولا اصطنعك، فقال له عقيل: والله لقد أجزل العطية وأعظمها، ووصل القرابة

وحفظها. ولكنه حفظ أمانته إذ خنتم، وأصلح رعيته إذ أفسدتم، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك، فاكفف لا أبالك فإنه عما تقول بمعزل.

أمر الحجاج بحمل الغضبان، فلما حملوه قال: «الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له بمقرنين» فقال الحجاج: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: «اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين» فقال الحجاج: جُرّوه، فلما جروه قال: «باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم».

«عدّد معاوية على الأحنف بن قيس ذنوبا، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين: لم ترد الأمور على أعقابها، وأما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التى قاتلناك لعلى عواتقنا. لئن مددت فترا من غدر لنمدّن باعا من ختر، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك... قال: فإنى أفعل».

• • •

حوار ليلى الأخيلية والحجاج:

عن مولًى لعنبسة بن سعيد بن العاص قال:

كنت أدخل مع عنبسة بن سعيد بن العاص إذا دخل على الحجاج، فدخل يوما فدخلت إليهما ثم جاء الحاجب فقال: امرأة بالباب، فقال له الحجاج: أدخلها، فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرتُ فإذا امرأة قد أسنَّت حسنةُ الخَلْق ومعها جاريتان لها، وإذا هى ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى، ما أتى بك فقالت:

إخلافُ النُّجوم (١)، وقلَّةُ الغُيوم، وكَلَبُ البرد (٢)، وشدَّة الجَهد، وكُنت لنا بَعد الله الرِّفد (٣)؛ فقال لها : صفي لنا الفجاج (٤)، فقالت : الفجَاجُ مُغبرَّة، والأرضُ مقشَعرَّة (٥)، والمبرَكُ مُعتَلٌ (٦)، وذُو العيال مُختَلٌ (٧)، والهَالكُ للقُلّ (٨)، والناسُ مُسنِتون (٩)، رحمة الله يرجُون، وأصابتنا سنُون مُجحفَةٌ مُبْلِطة (١٠)، لم تدعْ لنا هُبعًا ولا رُبَعًا (١١)، ولا عافطةٌ ولا نافطَةُ (١٢)، أذهَبَتْ الأموال ومزَّقت الرجال، وأهلكَت العيال، ثم قالت : إنى قلتُ فى الأمير قولا. قال : هاتى، فأنشأت تقول :

أحجَّاجُ لا يُفْلَلْ سلاحُك إنهَا الـ
ـمنَايا بكفِّ الله حيثُ تراها (١٣)

أحجَّاجُ لا تُعطى الْعُصاةَ مُناهمُ
ولا اللهُ يُعْطى للْعُصاة مُناها

١ - إخلاف النجوم : أى أن النجوم التى بها المطر لم تأت.
٢ - كلب البرد : شدته. وأصل الكلب السعار الذى يصيب الكلاب والذئاب.
٣ - الرفد : المعونة والعطية.
٤ - الفجاج : جمع فج : المكان المتسع.
٥ - مقشعرة : اقشعرت السنة أى أمحلت وأجدبت.
٦ - المبرك معتل : أرادت الإبل.
٧ - مختل : محتاج والخلة الحاجة.
٨ - الهالك للقُلّ : أى من أجل القلة والفقر.
٩ - مسنتون : أى مقحطون أصابهم القحط.
١٠ - مجحفة : قاشرة وجارفة. مبلطة أى ملزقة بالبلاط وهو الأرض الملساء، أى أنها مهلكة.
١١ - الهبع : ما نتج فى الصيف والربع ما نتج فى الربيع.
١٢ - عافطة : الضأن. نافطة : الماعز.
١٣ - لا يفلل : لا يثلم ولا يكسر.

إذا هبطَ الحجاجُ أرْضًا مريضةً
تتبَّعَ أقْصى دائها فشفاها

شفاها من الدَّاء الْعُضال الذى بها
غُلامٌ إذا هزَّ القَناةَ سَقاها (١)

سقاها فروَّاها بشُرْب سِجَاله
دماءَ رجالٍ حيث مال حشاها (٢)

إذا سمع الحجَّاجُ رزَّ كتيبة
أعَدَّ لها قبل النزُول قِراها (٣)

أعدَّ لها مَسْمُومَةً فارسيَّةً
بأيْدى رجالٍ يَحْلُبُون صَراها (٤)

فما ولَدَ الأبكارُ والْعَونُ مِثْلَه
ببحرٍ ولا أرضٍ يَجِفُّ ثَراها (٥)

• • •

قال : فلما قالت هذا البيت قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتى شاعر مذ دخلتُ العراق غيرها . ثم التفت إليها فقال : حسْبُك ، قالت : إنى قد قلتُ أكثر من هذا ، قال : حسْبُك ! ويْحك حَسْبُك ! ثم قال : يا غلام ، اذهب إلى

١ - العضال : الشديد الذى يعيى ويعجز .

٢ - سجال : السجل : الدلو .

٣ - الرز : الصوت تسمعه من بعيد . قراها : القرى ما يقدم للضيف . أى أعد لها عدتها وذلك ما فى البيت بعده .

٤ - صراها : الصرى : البقية .

٥ - العون : العوان : التى كان لها زوج .

فلان فقل له : اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فقال : فأمر بإحضار الحجَام ، فالتفتتْ إليه فقالت : ثَكلَتْك أمك ! أمَا سمعتَ ما قال ؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصِّلة ، فبعث إليه يستثْبتهُ (١) فاستشاط الحجاجُ غضبا وهمَ بقطع لسانه وقال : اردُدْها ، فلمت دخلت عليه قالت : كاد وأمانة الله يقطع مقوَلى (٢) ، ثم أنشأت تقول :

حجاجُ أنْتَ الذى ما فوْقَه أحدُ

إلا الخليفةُ والمُستغْفرُ الصَّمدُ

حجاجُ أنتَ شهابُ الحرب إن لقحتْ

وأنْت للناس نورٌ في الدُّجى يقدُ (٣)

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إلا أنا لم نر قطَ أفصحَ لسانا ، ولا أحسن محاورةً ، ولا أملح وجها ، ولا أرْصنَ شعراً منها ! فقال : هذه ليلى الأخيلية التى مات توْبَةُ الخفاجىُ من حبها .

دخل يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك وكان دميما ، فلما رآه قال : قبح الله رجلا أجرك رسنه وأشركك فى أمانته ، فقال له يزيد : يا أمير المؤمنين رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر ، ولو رأيتنى والأمر علىَّ مقبل

١ - يستثبت : يتثبت ويتحقق .

٢ - مقولى : المقول : اللسان .

٣ - لقحت : اللقاح ما تلقح به النخلة من الطلع ، والحرب اللاقح هى التى تنتج الشر . والحجاج شهاب الحرب أى أنه يحرقها ويخمدها كالشهاب . يقد : متقد .

تعليق على الحوار :

١ - تصف ليلى الأخيلية ما أصاب الناس من قحط وما قاسوا من جهد فى معيشتهم ، وتصور ذلك تصويراً يمثل حياة البادية وما يعتمد عليه سكانها من موارد الرزق .

٢ - ثم تدعو للحجاج بألا يفل سلاحه ، وتصفه بالبأس وبأنه شجاع ، يهز قناته ويرويها بدماء أعدائه ، وبأنه يخمد الفتن بما يعده للمناوئين من سلاح وعدة ورجال .

لاستكبرت منى ما استصغرت، واستعظمت منى ما استحقرت، فقال له: أترى الحجّاج استقر فى قعر جهنم بعد! فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذاك فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابر، وهو يجئ يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فحيث كانا كان.

قالَ معاوية لعَقيل بن أبى طالب: إن عليًا قطعك ووصلتك، ولا يرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر. قال: أفعل، فصعد المنبر ثم قال: أيها الناس، إنَّ أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليًا فالعنوه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت. قال: والله لا زدت حرفا، ولا نقصت حرفا آخر، والكلام على نية المتكلم.

قال معاوية لابن الطُّفَيْل: أنت من قتلة عثمان؟ قال: لا، ولكنى ممن حضره ولم ينصره. قال: فما منعك أن تنصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار فلم أنصره؟ قال: لقد كان حقه واجبًا، وكان عليهم أن ينصروه. قال: فما منعك نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمه؟ قال: أو ما طلبى بدمه نصرة له، فضحك ابن الطفيل وقال: مثلك ومثل عثمان، كما قال الشاعر:

لأعْرِفَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ تَنْدُبُنى
وَفِى حَيَاتِىَ مَا زَوَّدْتَنِى زَادِى

قال مَسْلَمة بن عبد الملك يوما لنُصَيْب: أمدحت فلانا؟ قال: نعم. قال: أو حرمك؟ قال: فعل. قال: فهلا هجوته؟ قال: لم أفعل، قال: ولم؟ قال: لأنى كنت أحقَّ بالهجاء منه، إذ رأيته موضعًا لمدحى؛ فأعجب به مسلمة، وقال: سلنى، قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأنَّ كفك بالعطية أجود من لسانى بالمسألة، فوهب له ألف دينار.

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها القتل. قالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك، فقال لها: من صاحبي؟ قالت: فرعون استشارهم في موسىٰ، فقالوا: أرجئ وأخاه.

تكلم الناس عند معاوية في يزيد ابنه، إذ أخذ له البيعة وسكت الأحنف، قال له: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخافك إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت.

هذا وإن أهم ما يميز المحاورات والأجوبة - بعد أن وقفنا على بعض نماذجها - :

- الإيجاز الدقيق، والعبارة القوية، والتصوير البارع.
- نقض حجة الخصم، أو قلبها عليه، أو قلب الأوضاع قلبا فكاهيا أو قلبا مبنيا على التعريض.
- حسن التخلص.
- ونماذج المحاورات والأجوبة تكشف عن هذه الخصائص وتؤكد عليها.

• • •

الكتابة

اتجاهاتها وسماتها

الكتابة لغة العقل ومظهره، ومرآة الخاطر وجوهره، تكشف بوضوح عن العقل والنفس، وتعبر عما ينتج عنهما من أفكار وآثار وعواطف ومشاعر، وتتأثر بما ينال المدارك ويستحوذ على المشاعر من العوامل الحضارية، والظواهر العمرانية، والنتائج العلمية.

وهى لسان الدول وصوت الأفراد. تعبر عن الدولة فى المكاتبات الرسمية، وعن الأفراد فى الرسائل الإخوانية. وعن العقل ولقاحه فى الكتابة العلمية، وعن العقل والعاطفة معا - ثمارا وصدى - فى الكتابة التاريخية والاجتماعية.

كانت الكتابة فى صدر الإسلام فى طور النشوء والتدرج، ضيقة محدودة فى إطار كتابة الرسائل فحسب، غير أن هذا النوع من الكتابة لم يصطبغ بالصبغة الفنية ذات الصناعة، إذ كانت الرسائل موجزة مختصرة، لا تطمح إلا إلى مجرد الأداء أو الإلمام بالغرض، فى غير تفنن أو إثارة لجمال ولذة فنيين، فلما كان العصر الأموى وكانت الفتوح قد تقدمت، وانضوى تحت لواء المسلمين كثير من الأمم، واختلط العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية، ووقف العرب على نُظُمهم وآدابهم وحضاراتهم، وتبدلت الحال غير الحال، أصبحت الكتابة بجميع أنواعها من ديوانية، وعلمية، وإنشائية، وهكذا مكنت هذه الأسباب النثر من القوة والنماء من جانب، وامتداده إلى فنون جديدة لم تكن له من قبل من جانب آخر، وما من ريب فى أن هذه الأسباب التى قوّت النثر وزادت فى فنونه أسباب طبعية، ففى النثر هذا أوجدته ظروف العرب، ودعت إليه حاجة حياتهم، فهو

عربي الوجه واللسان، والمنبت والمنشأ، وليس كما يزعم البعض: أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان، والذين يزعمون هذا مسرفون، إذ الأمر لا يعدو طور التأثر والتطور.

في عصر بني أمية اتسعت مرامي الدولة، وتعددت شئونها وكثرت مسئولياتها، فنشأت تبعا لذلك الدواوين المصرفة لشئون الدولة وتعددت، وعهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين، وظلت الكتابة في دواوين الخراج - خاصة - في الأقاليم بلغة أهل المصر [1]: ففي العراق وفارس وخراسان بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالروسية - أو القبطية - حتى حذقها من العرب طائفة صالحة - من أمثال: صالح بن عبد الرحمن، وسليمان بن سعد، وابن يربوع الفزاري - سدوا حاجة هذه الدواوين. فحولت إلى العربية في خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد؛ وبسطت اللغة العربية سلطانها على كل شئون الدولة ومرافقها في سائر الأقاليم. وأضحت لا تزاحمها لغة أخرى.

وبهذا العمل الجليل طوّق الأمويون جيد العربية بمكرمة لا تزول ومنّة لا تمحى.

بيد أن أهم هذه الدواوين بالنسبة إلى الكتابة هو «ديوان الرسائل» فقد كان لكل خليفة كاتب رسائل يتولى الخليفة بنفسه إملاء رسائله عليه؛ وكانت الرسائل التي تصدر عن الخلفاء والأمراء في بدء العصر الأموي تتسم بالسهولة والإيجاز، والخلوّ من التكلف في الألفاظ والمعاني، إلا ما جاء عفو الخاطر، فلم تظفر بسمات الرسائل الفنية الإنشائية، ولم يظهر لكتاب الرسائل شخصية فيما يصدرون إلا في عهد سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك، وكاتبه

---

١ - أما دواوين الجند ودواوين الرسائل فكانت تكتب بالعربية منذ وضعت.

على رسائله، إذ كان ينوب عن الخليفة فى كثير منها، ويشير إلى ذلك فى ذيول رسائله.

ويعدّ عصر هشام بن عبد الملك العصر الذى عنى فيه بهذه الرسائل عناية فنية، حيث ظهرت على يد كاتبه سالم صناعة الكتابة الإنشائية، وتحويلها من حالتها السابقة التى اتسمت بالتبسط والإطلاق إلى نظم ذات شرائط وقيود، بيد أن ما أتاه سالم لم يؤت أكله ولم يثمر ثماره المرجوة إلا على يد تلميذه «عبد الحميد بن يحيى» المعروف بعيد الحميد الكاتب.

وشهد العصر بذلك نثرا أدبيا سياسيا، موضوعه هذه الرسائل التى تصدر عن الخلفاء والأمراء فى المسائل السياسية المختلفة.

ولا غرو!! فكلا الرجلين يجيد لغتين إذ كان الأول يتقن اليونانية إلى جانب العربية، والثانى يتقن الفارسية إلى جانب العربية واليونانية، ومن البدهى أن الذى يجيد لغتين يستطيع أن يجعل أناسا يكرعون فى إناء ناس، ويرتوى كل منهم من إناء آخر.

ومن ثم نستطيع أن نقرر: أن الكتابة الإنشائية قد مرت بطورين: أولهما من قيام الدولة الأموية حتى عصر الوليد، وثانيهما من عهد الوليد إلى نهاية الأمويين، فى الطور الأول سارت الكتابة على ذلك النهج الذى اتسمت به فى صدر الإسلام، من السهولة والإيجاز، والبعد عن التكلف، والخلو من عبارات التبجيل والتفخيم والمبالغة، وجريان الضمائر فيها على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع فى كلام المتكلم وخطاب الواحد، واستهلالها بالبسملة واختتامها بالسلام، وأن يبدأ الكاتب باسمه ولو كان المكتوب إليه أعظم منه، وهذا إنما يمثل طبيعة الأشياء الفطرية.

ومن ذلك كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بعد موقعة دير الجماجم، وكان الحجاج قد قتل فيها من الخارجين على الدولة - بعد استسلامهم - عددا كثيرا :

«أما بعد، فقد بلغنى سرفك فى الدماء، وتبذيرك الأموال، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس، وقد حكمت عليك فى القتل بالقود، وفى الخطأ بالدية، وأن تردَّ الأموال إلى أصحابها، فإنما المال مال الله ونحن خزانه، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا».

وفى الطور الثانى : أخذت الكتابة تتدرج فى التجويد والتوسع فى الأساليب، فمنذ ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك أمر بتوحيد القراطيس، وتفخيم المكاتبات، وألا يكاتب بمثل ما تكاتب به السوقة. وأنف من الكتابة إليه مع تأخير اسمه، وسلك هذا المسلك من جاء بعده من الخلفاء، إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل فإنهما حملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف، ثم رجع الأمر بعدهما إلى رأى الوليد، وكأن نظام الكون وطبيعة الناس قد أبيا إلا التطور والانطلاق.

وقد عرفت الكتابة فى هذا الطور الطريق إلى التأنق والصنعة وإشراق البيان، وصفاء الديباجة، حتى أضحت صناعة فنية ذات أصول وقواعد على يد عبد الحميد الكاتب الذى أسهب فى الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات فى أولها، وتوسع فى الأساليب؛ وتبعه فى ذلك سائر الكتاب.

كذلك اقتضت كثرة الأعمال لدى الخلفاء والولاة إيجاد نوع من الكتابة عرف «بالتوقيع» يجنح إلى الإيجاز الشديد فيما يُبدون من رأى تجاه ما يقدم إليهم من شكايات أو مطالب، يذيلون به الرسالة أو الشكاية، دليلا على

وقوفهم على ما فيها، وهذه الكلمة الموجزة المجملة التى تذيل بها الرسالة تكشف عن رأيهم، من ذلك: «كتب مسلم بن عقبة المُرىَ إلى يزيد بن معاوية بالذى فعل بأهل المدينة فى وقعة الحرّة، فوقّع يزيد فى أسفل كتاب المرىَ: «فلا تأس على القوم الفاسقين» و«كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع، فوقع سليمان: «العاقبة للمتقين».

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه يستأذنه فى مرمة مدينته فوقع عمر: «ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم».

وكتب إليه عامله على الكوفة أنه فعل فى أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له: «أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده».

ومن مظاهر الكتابة التى ولدت على يد العصر الأموى «الرسائل الإخوانية» وهى التى تكون بين الناس، بعيدة عن المهام الرسمية، تتشعب فنونها وأغراضها، فمن تهنئة إلى تعزية، ومن عتاب إلى شوق ومن شكر وتقدير إلى استعطاف واستمناح، ومن شكوى إلى تصبر، وقد دعا إلى ظهورها: انتشار العلم والكتابة، واتساع رقعة الدولة، وتوزع الناس فى الأمصار، مع اتصال الأواصر ووشائج الأرحام.

وقد أضفى كُتاب هذه الرسائل عليها - فى أواخر العصر - طرفا من التأنق، ومسحة من الابتداع، وعرف كل من التقسيم والازدواج والسجع الطريق إليها.

ومن نماذجها ما كتبه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (*) إلى بعض إخوانه يعاتبه:

★ - ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، وكان الرجل عالما نسابة وخطيبا مفوّها، وشاعرا مجيدا، وإليه ينسب البيتان المشهوران: =

أما بعد : فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك ابتدأتنى بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء من غير جريرة ، فأطمعنى أولك فى إخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحا ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

إلى جانب هذه الألوان من الكتابة برز مجال حيوى آخر ، جالت فيه الكتابة وصالت ، هو : مجال العلم والفلسفة والقصص ، دعا إلى هذا اللون : نضج العقل العربى ، وميل النفس الظاهر إلى الأناة والتفكير ، وانضواء الأجانب وذوى الثقافة والحضارة والعلوم تحت لواء الإسلام ، فظهرت الكتابة التاريخية ، وقد اضطلعت بتسجيل تاريخ عرب الجاهلية وأيامهم ، وغزوات النبى ﷺ وفتوح المسلمين ، وأخبار السابقين ، ومن الذين كتبوا فى التاريخ فى هذا العهد : عُبَيْد بن شَرْيَة ، ووهب بن مُنَبِّه ، وموسى بن عقبة ، وكتب أبان بن عثمان وعروة بن الزبير فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ومغازيه .

وفى الوقت نفسه بدأ جمع الأمثال وتدوينها ، ومن فرسان هذا الميدان : صحار العبدى ، وعبيد بن شرية .

وعرفت المجالس القصصية : وبينما كان القصاص يتحدثون إلى الناس كان

= وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا
كلانا غنىّ عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا

الرسالة فى : البيان والتبيين : ج ٢ ص ٨٥ ، وزهر الآداب للحصرى : ج ٢ ص ١٢٤ .

المتكلمون والفلاسفة ورؤساء الفرق يتناظرون ويتجادلون، يؤيد كل منهم مذهبه باللسان بعد أن كان يؤيده بالسنان، وفى هذه الأثناء كان رجال الدين يحدثون أنفسهم بتدوين ما حفظوه من الحديث وتفسير القرآن والفتيا والأحكام الفقهية، كذلك ظهر أثر اتصال العرب بغيرهم من الأمم، إذ وقفوا على علومهم الخليقة بالمعرفة والترجمة.

وكان من أثر اضطلاع الكتابة بالمهام العلمية والحضارية دعوة الناس إلى التفكير وإعمال العقل والاعتبار والعظة؛ كما كان من آثار هذه المؤثرات العقلية والفكرية ظهور التوليد والمناظرات والمحاجة، والجدل والحوار حول القضايا التى كانت موضع خلاف، وفى قول يزيد بن جندب التالى ما يلقى الضوء على هذا المناخ الفكرى الذى كان سائدا :

ما كان أغنى رجالا ضلّ سعيهمُ

عن الجدال وأغناهم عن الخطب ..!!

كنا أناسا على دين ففرقنا

طول الجدال وخلط الجدِّ باللعب

وبذلك يكون النثر قد خطا خطوات فسيحة فى سبيل الكمال، الذى تربع فوق قمته فى الدولة العباسية.

أثر عبد الحميد بن يحيى فى الكتابة

يُعَدّ عبد الحميد شيخ الكتاب ورئيسهم، ضرب به المثل فى بلاغة الإنشاء، حتى قيل : «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» وقد ساعده على هذا التألق : براعته فى حذق اللغة العربية، وجمعه محاسن الثقافتين : اليونانية من سالم أستاذه، والفارسية من صديقه ابن المقفع، وقد

كانت الكتابة قبله حديثا مكتوبا لا ينتظمها نظام، ولا تحور إلى فن، تدور في فلك الإيجاز الذى كثر في العهد السفياني، والإطناب الذى فشا في العهد المرواني، فبلغا على يديه درجة جعلت الناس يقولون فيه : «يكتب في سطر واحد ما يكتبه في حمل بعير، ويكتب في حمل بعير ما يكتبه في سطر واحد» وامتاز بأسلوبه العذب المورد، الصافي الديباجة، الذى يصيد المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر، كتب كتابا إلى أبي مسلم الخراساني على لسان مروان يستجلبه فيه ويستميله، وكان لكبر حجمه يحمل على بعير، فلما وصل إلى داهية خراسان أبى أن يقرأه، وأمر بإحراقه، إشفاقا على نفسه من تأثيره، وكتب على جذاذة منه إلى مروان بن محمد :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب

وقد نوع ابن يحيى الخطاب موافقة لحال المخاطب ومراعاة للمقام وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، فكان لقدرته على الإيجاز والإطناب يتخير لكل منهما الموضع المناسب، فيطنب في الأخبار بالفتوح والحث على الجهاد والوعد والوعيد، ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء وما إلى ذلك. وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وعالج معاني لا تطاوع الكاتب في القدرة عليها، وكان يقسم الموضوع إلى فقرات، يربط بينها الربط المنطقي، ويعتمد على «الحال» في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها وتجميل الكلام وإبراز الموسيقى، كقوله : «وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيول مهلوبة [1]، فإنها أسرع طلبا، وأنجى مهربا، وأبعد في اللحوق غاية، وأصبر في معترك الأبطال إقداما».

---

١ - مستأصلة شعر الذنب.

وتقفى أثر عبد الحميد المترسلون وساروا عليه، فأصبحت الكتابة صناعة، محررة الأصول، مميزة الفصول، ذات قواعد وقيود ونظم.

قال من وصيته للكُتّاب، تلك التي تدل دلالة قاطعة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكُتّاب أصبحوا جماعة: أما بعد: حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا، وإن كانوا في الخلقة سواء، وصرفهم في صروف الصناعات، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم، وأبواب رزقهم»، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات، والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يُصْلِحُ الله للخلق سلطانَهم، وتَعْمُر بُلدانهم....

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفهموا في الدّين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثِقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قِوام كتاب الخراج.

وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحداً منكم الكِبَرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه، واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد :

أما بعد : فإن الله تعالىٰ جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها رضي وسكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها . وشكاها مستزيدا لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحلبناها ، ثم شمست منا نافرة ، ورمحتنا مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا من الإخوان ، فالدار نازحة ، والطير بارحة [١] ، وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا ، وإليكم وجدا ، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها تكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار ، والذل شر جار ، فنسأل الله تعالىٰ الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، في دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .

وكتب موصيا بشخص - وهو من رسائله الموجزة - :

«حق موصل كتابي عليك كحقه عليّ ، إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآني أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله» .

لكل هذه الأسباب تبوأ عبد الحميد مكانة أدبية مرموقة ، وأصبح عنوانا للكتابة الفنية الإنشائية في عصر بني أمية .

• • •

١ - أفاويق : جمع أفواق ، ومفردها فيقة ، والفيقة ما تجمع من اللبن بين الحلبتين ، شمست : من شمس الفرس إذا جمح ، رمحتنا : من رمحه الفرس إذا ركله . الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى اليسار ، وبها يتشاءم العرب .

★ - راجع الموضوع في : تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ، (الجزء الأول ص ٣٧٧ وما بعدها : الأدب القديم ، من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية) طبعة بيروت .

شعاع على النقد
في العصر الأموي (*)

بدأ الأدباء في العصر الأموي يَقْصِدون إلى النقد ويتجادلون في تقديم بعض الشعراء على بعض وفي خصائص هؤلاء الشعراء، ولكن على غير منهاجٍ واضحٍ ولا حُبًّا باستخراج قواعد عامة: لقد بَقِيَ النقد في هذا العصر آراء شخصية وملاحظات عابرة، قال محمد بن سَلام الجُمَحي في كتابه «طبقات الشعراء» (ليدن، ص ٧٥ - ٧٦):

لمّا هرب الفرزدق من زياد بن أبيه في العراق أتى سعيدَ بن العاصي، وهو والٍ على المدينة أيامَ معاوية بن أبي سفيان، فاستجاره. فأجارهُ سعيدٌ وكان الحطيئة وكعب بن جُعيلٍ الشاعران في مجلس سعيدٍ، فأنشد الفرزدق سعيداً يمدحه:

ترى الغُرَّ الجَحَاجِحَ من قُريشٍ
إذا ما الأمرُ في الحَدَثان عالا (١)
بني عَمِّ النبيِّ ورَهْطَ عمرو
وعُثْمانَ الأُلى غلبوا فَعالا (٢).

★ - راجع: تاريخ الأدب العربي: ج ١ ص ٣٧٧ ومابعدها، د. عمر فروخ. والأدب العربي وتاريخه: د. محمد عبدالمنعم خفاجي ص ٢٩٦ وما بعدها.

١ - الأغر: الأبيض، الوجيه. الجحجاح: السيد. الحدثان: الأحداث العظام، المصائب. عال: ثقل على الناس.

٢ - بنو عم النبي: من بني هاشم أسرة الرسول. رهط عمرو وعثمان: من بني أمية؛ وهاتان الأسرتان عماد قبيلة قريش كلها. الفعال: العمل الحميد. غلبوا فعالا: فاقوا جميع الناس بأعمالهم الحميدة.

قـيـامًـا يَنْظُرون إلى سـعـيـدٍ

كـأنـهُـمُ يَـرَوْنَ بـه هـلالا !

فقال الحطيئة (لسعيدٍ) : هذا، والله الشعرُ، لا ما كنتَ تُعَلَّلُ به مُنذُ اليوم (مما كـان يُنشـدك كـعبُ بن جُـعـيل)، أيها الأمـيـرُ! فـقـال كـعب بن جـعـيل (للحطيئة) : فَضِّل (الفرزدق) على نفسك ولا تُفضله على غيرك. فقال (الحطيئة) : بلى، والله، أُفضله على نفسي وعلى غيري.... ثُمَّ التفت الحطيئة إلى الفرزدق وقال له : يا غلامُ، لئن بقيتَ لتبْرُزَنَّ علينا !

وفي «طبقات الشعراء» أيضا (قال الأخطل لابنه مالك : انْحَدِرْ إلى العراق حتى تسمع من جرير والفرزدق وتأتيني بخبرهما، فلقيهما مالكٌ ثم أتى أباه فقال : جريرٌ يَغْرِفُ من بحرٍ، والفرزدق يَنحَتُ من صخرٍ. فقال الأخطل : فجريرٌ أشعرهُما !

وكان عكْرِمَةُ بن جرير قد سأل أباه جريرا عن الشعراء، فقال جريرٌ في الأخطل : إنه يُجيد نَعتَ الملوك ويُصيب صفة الخمر (طبقات الشعراء ١١٣) وفي الأغاني (١ : ٧٥) : «سَمِعَ الفرزدق شيئًا من نسيب عُمرَ (بن أبي ربيعة) فقال : هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكَت الديار، ووقع عليه هذا !

دخل كثير عزة يوما على سكينة بنت الحسين، فقالت له : أنت القائل :

فـمـا روضـة بـالحـزن طـيـبـة الثـرى

يـمج النـدى جـثـجـاثـهـا وعـرارها [1]

بـأطـيـب من أردان عـزة مـوهـنـا

وقـد أوقـدت بـالمـندل الـرطـب نـارها [2]

---

١ - الحزن : ما غلظ من الأرض. الجثجاث : نبات العرار، بهار البر.

٢ - الأردان : جمع ردن كقفل وهو الكم. الموهن : من أول الليل إلى نحو نصفه. المندل : العود.

أى زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب إلا طاب ريحها . ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقا

وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب [١]

واجتمع الكميت ببعض الشعراء فأنشدهم من شعره حتى إذا بلغ قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة

وإن تكامل فيها الأنس والشنب [٢]

عقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصى ؟ قال : خطأ : باعدت فى القول ، ما الأنس من الشنب ؟ - يريد أنه جمع بين أمرين لا سبيل إلى جمعهما - واجتمع بعض الشعراء عند كثير عزة وفيهم عمر بن أبى ربيعة فأقبل كثير على عمر ينقد قوله :

قومى تصدى له ليعرفنا

ثم اغمزيه يا أخت فى خفر

قالت لها قد غمزته فأبى

ثم اسبطرت تشتد فى أثرى [٣]

وقال : إن الحرة إنما توصف بالحياء والامتناع وأنها مطلوبة لا طالبة .

---

١ - قيل لكثير : مالك لا تقول الشعر أجبلت ، قال : والله ما كان ذلك ، ولكن فقدت الشباب فما أطرب ، ورزئت عزة فما أنسب ، ومات ابن ليلى فما أرغب ، يعنى عبدالعزيز بن مروان (١ : ٣٠ الأمالى ، ٣ : ٤١٣ العقد) .

٢ - الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

٣ - اسبطرت : أسرعت .

ويروى أن الكميت عارض بائية ذى الرمة التى مطلعها :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

فقال :

هل أنت فى طلب الإيقاع منقلب

أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

وأنشدها ذا الرمة فقال له : ويحك إنك لتقول قولا ما يقتدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشئ فلا تجئ به ولا تقع بعيداً عنه .

وامتدح ذو الرمة قصيدة للكميت بأنه أحسن فى ترقيض قوافيها .

ومن صور النقد قولهم فى ابن أبى ربيعة : إن لشعره موقعًا من القلب وعلوقا بالنفس ، وما قدموا به عمران بن حطان على الشعراء لأنه يقول وهو صادق فيفوقهم وهم يكذبون ، وقالوا : إن جريرا يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . وكان جميل يقول فى عمر بن أبى ربيعة : إنه يجيد مخاطبة النساء وإن أحداً لم يخاطبهن بمثل ما خاطبهن به عمر ، وجرير يعترف للأخطل بأنه أشعرهم فى وصف الخمر ومدح الملوك وهكذا .

وأنشد كثير عزة قوله :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة

بعيران نرعى فى خلاء ونعزب

كلانا به عر فمن يرنا يقل

على حسنها جرباء تعدى وأجرب [1]

---

١ - العر : الجرب .

إذ مـــا وردنا منهـــلا هاج أهـلـه

إليـنا فـــلا ننفك نرمى ونضـــرب

فقالت له عزة: لقد أردت لى الشقاء الطويل.

وأُنشد عبد الملك قول نصيب :

أهيم بدعـــد مـــا حـــييت فـــإن أمت

فـــواحـــزنا من ذا يهـــيم بهـــا بعـــدى؟

فقال بعض الحاضرين: أساء القول أيحزن لمن يهيم بها بعده؟ قال عبد الملك لو كنت قائلا فماذا تقول؟ قال :

أهيم بدعـــد مـــا حـــييت فـــإن أمت

أوكِّل بدعـــد من يهـــيم بهـــا بعـــدى

فقال عبد الملك: أنت أسوأ قولا، ثم قال: الوجه أن يقال:

أهيم بدعـــد مـــا حـــييت فـــإن أمت

فـــلا صلحت دعـــد لذى خلة بعـــدى

أنشد ذو الرمة بلال بن أبى بردة يمدحه :

رأيت الناس ينتـــجـــعـــون غـــيـــثًـــا

فـــقلت لصـــيـــدح : انتـــجـــعى بلالا [1]

واستأذن جرير على سكينة بنت الحسين فلم تأذن له، وخرجت جاريتها فقالت: تقول لك سيدتى: أنت القائل:

١ - أى سمعت هذه العبارة «الناس ينتجعون غيثا»، قال المبرد: المعنى سمعت هذا اللفظ أى قائلا ينطق به.. وصيدح اسم الناقة.

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال: نعم، قالت: أفلا أخذت بيدها فرحبت بها وأدنيت مجلسها وقلت لها ما يقال لمثلها، أنت عفيف. فخذ هذين الألفين من الدراهم والحق بأهلك.

وعاب رواة الشعر فى العصر الأموى على الشماخ بن ضرار قوله:

إذا بلغتنى وحملت رحلى
عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقالوا: كان ينبغى أن ينظر لها مع استغنائه عنها، فقد قال رسول الله للأنصارية المأسورة بمكة، وقد نجت على ناقة لها، حين قالت يا رسول الله، إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها، فقال لبئس ما جزيتها.

وعابوا على الأحوص قوله لعبد الملك بن مروان:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم
مذق الحديث يقول ما لا يفعل [١]

فقالوا: إن الملوك لاتمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة وإنما تمدح بالإغراق والتفضل بما لا يتسع غيرهم لبذله.

إلى غير ذلك من صور النقد فى هذا العصر وهى كثيرة لا تحصى.

ومن مشهورى النقاد فى هذا العصر عبد الملك بن مروان، وسكينة بنت الحسين يروى أن الفرزدق الشاعر خرج حاجًا [٢]؛ فلما قضى حجه عدل

١ - مذق الحديث: مخلوط الحديث من مذق كنصر إذا خلطه.

٢ - الأغانى: ص ٣٨ ج ٨، مصارع العشاق: ص ٧٤، المحاسن والمساوئ: ص ١٣٣ طبع ليبزج.

إلى المدينة؛ فدخل إلى سكينة بنت الحسين، فسلم، فقالت له: يا فرزدق [١]، من أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعر منك الذى يقول:

بنفـــسى من تجنبـــه عـــزيز
علـــى ومـــن زيـــارتـــه لمـــام
ومـن أمـــســى وأصـــبح لا أراه
ويطـرقنـى إذا هـجـع النـيـــام

فقال: أما والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه. قال: أقيموه؛ فأخرج. ثم عاد من الغد، فدخل عليها؛ فقالت يا فرزدق: من أشعر الناس؟ فقال أنا؛ قالت كذبت، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

لولا الحـيـــاء لعـــادنى استـــعبـــار
ولزرت قـــبـــرك والحـــبـــيب يزار
كـانت إذا هجـر الضـجـيع فـراشـهـا [٢]
كـــتم الحـــديث وعـــفت الأســـرار
لا يلبث القـــرناء أن يتـــفـــرقـــوا
لـيل يـكر علـيـــهم ونـهـــار

فقال: والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه؛ فأمرت به فأخرج.

ثم عاد إليها فى اليوم الثالث، وحولها مولدات لها كأنهن التماثيل، فنظر

---

١ - الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر فنظمه ونبغ فيه، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم، ثم رحل إلى خلفاء بنى أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم، مات سنة ١١٠ هـ.

٢ - الضجيع: الزوج، وهجرها أن يغيب عنها. يصفها بالعفاف.

الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها، وبهت ينظر إليها. فقالت له سكينة: يا فرزدق؛ من أشعر الناس؟ قال أنا، قالت كذبت، صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إن العيـــون التى فى طرفـــهـــا مـــرض

قـــتلتنا ثم لم يحـــيـــين قـــتـــلانا

يصـــر عن ذا اللب حـــتى لا حـــراك به

وهـن أضـــعـف خلـق الله إنســــانا

فقال: لئن تركتنى لأسمعنك أحسن منه فأمرت بإخراجه، فالتفت إليها وقال: يا بنت رسول الله؛ إن لى عليك حقًا عظيمًا. قالت: وما هو؟ قال: ضربت إليك آباط الإبل من مكة إرادة التسليم عليك؛ فكان جزائى من ذلك تكذيبى وطردى، وتفضيل جرير علىّ، ومنعك إياى أن أنشدك شيئا من شعرى، وبى ما قد عيل منه صبرى، فإذا أنامت فمرى بى أن أدرج فى كفنى ثم أدفن فى ثياب هذه الجارية [١].

فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية، فخرج بها آخذا بريطتها [٢]، ثم قالت له يا فرزدق، احتفظ بها وأحسن صحبتها: فإنى آثرتك بها على نفسى بارك الله لك فيها.

• • •

١ - يشير إلى الجارية التى أعجبته.

٢ - الريطة: الملاءة.

في رياض التراجم

لأعلام من العصر الأموي

معن بن أوس

١ - هو معْنُ بن أوْس بن نصر بن زياد من بنى ربيعة بن عَدىّ من بنى مُزينة ابن أُدّ.

ولُد معن بن أوس فى أعقاب الجاهلية وبلغ مبلغ الشباب وشهد فيها أيضًا معارك نشبت بين بنى قومه فى الحجاز. ويبدو أنه لما أسلم ووفد على عمر ابن الخطاب استقر فى المدينة. وكان معن على شئ من اليسار يملكُ نخلات فى المدينة وشيئًا من الأرض، فى أماكن أُخر، ويملك كثيراً من الإبل [1]. وقد حملته تجارته مرة إلى البصرة وتزوج فيها، ولكن لم تطُل إقامته هناك.

ولم يخرج معن بن أوس فى الفتوح ولكنه اشترك فى الفتنة بين عثمان وعلىّ، وكان يتكسب بمديح نفر من الصحابة فى مكة والمدينة.

وأسنّ معن بن أوس كثيراً وعَمِىَ فى شيخوخته ثم تُوفى فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٤م)، فى أول الفتنة بين عبد الله بن الزبير وبين مروان بن الحكم.

٢ - معن بن أوس شاعر مجيد متين الكلام حَسَنُ الديباجة فخم المعانى له مدائح ومراث وأهاج وأبيات فى الحكمة جميلة.

٣ - المختار من شعره :

روى أبو تمام لمعن بن أوس هذه الأبيات فى باب الأدب من كتاب الحماسة :

---

١ - البيان والتبيين: ٣ : ٢٣١، الحاشية ٥ .

وإنى أخــوك الـدائمُ العـهـد لم أخُنْ

إن ابْزاكَ خَـصْمٌ أو نبـا بكَ منزلُ (١)

أحـاربُ من حـاربتَ من ذى عـداوة،

وأحْبِسُ مـالى، إن غـرمْت، فـأعْـقلُ (٢)

وإنْ سُـؤتنى يومًـا صـفـحْتُ إلى غـد

ليُـعْـقب يومًـا منك آخـرُ مُـقْـبلُ (٣)

وإنى على أشـيـاءَ منك تريبُنى

قـديمًـا لذو صـفْح على ذاك مُـجْملُ (٤)

سـتـقْطعُ فى الدنيـا، إذا مـا قطعْـتنى،

يمـينك فـانْظر أىَّ كـف تبـدل (٥)

وكنتُ إذا مـا صـاحبٌ رام ظنتى

وبدل سُـوءًا بالذى كنتُ أفـعل (٦)

قلبْتُ لـه ظَـهْـرَ المجَنَّ فلم أدُمْ

على ذاك إلا رَيْثـمـا أتحـول (٧)

---

١ - بزا، يبزو: قهر، بطش به. نبا بك منزل: كرهك الناس.

٢ - أقاتل معك أعداءك، وأحتفظ بقسم من مالى حتى أفى به دينك، أو أدفع منه دية من تلزمك ديته.

٣ - إن سؤتنى يومًا فأنا أنتظر يومًا آخر سيأتى وستسرنى فيه.

٤ - أشياء منك تريبنى: تجعلنى أشك فى وفائك. مجمل: معاملك بلطف وإحسان.

٥ - ... هل تجد خيرًا منى إذا هجرتنى؟

٦ - إذا أراد صديق لى اتهامى، أو إذا جازانى بالسوء على (الخير) الذى فعلته معه أبديت له عداوتى ثم هجرته ونسيته.

٧ - السابق.

إذا انْصَرَفَتْ نفسي عن الأمرِ لم تَكُنْ

إليه بوجهٍ، آخرَ الدهرِ، تُقْبِلُ !

كان معن بن أوس مِثْناثًا (لا يُولدُ له إلاّ بناتٌ) فكان يُحْسِنُ صُحبةَ بناته وتربيتهنَ. فوُلدَ لرجلٍ من عشيرته بنتٌ فأظهرَ الكُره لها، فقال معن :

رأيتُ أناسًا يكرهون بناتهم

وفيهنّ - لا تَكْذِبُ - نساءٌ صوالحُ

وفيهن، والأيامُ تَعْثُرُ بالفتى،

نوادبُ لا يَمْلُلْنَهُ ونوائح [1]

وله قطعة في العتاب والأدب منها البيتان المشهوران التاليان :

أعلّمُهُ الرماية كلّ يوم،

فلمّا اشْتَدّ ساعِدُهُ رماني [2]

وكم علّمته نظم القوافي،

فلما قال قافيةً هَجاني !

ومما يستجاد من الشعر لمعن بن أوس المُزني (ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٢ هـ، ١ : ٥٣؛ راجع الأمالي ٢ : ١٠٥) :

وذي رحمٍ قلمتُ أظفارُ ضغنه

بحلمي عنه، وهو ليس له حلم [3]

---

١ - مصيبات الزمان كثيرة، والبنات أكثر شفقة على والدهن (من أبنائه).

٢ - الرماية : إصابة الهدف بالنبال. استد ساعده : أصبح يصيب الهدف ولا يخطئ.

٣ - ذو الرحم : ذو القرابة. قلمت أظفار ضغنه : أبطلت نتائج حقده علي.

إذا سمته وصل القرابة سامنى

قطيعتها ؛ تلك السفاهة والظلم

وأسعى لكى أبنى، ويهدمُ صالحى ؛

وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

يُحاول رُغمى لا يُحاول غيره،

وكالموت عندى أن يُنال له رغم [1]

فإن أنْتصرْ منه أكنْ مثلَ رائشٍ

سهامَ عدوّ يُستهاض بها العظم [2]

فبادرَ منى النأىُ ؛ والمرءُ قادرٌ

على سهمه ما دام فى كفه السهم [3]

فإن أعفُ عنه أُغْضِ جفنًا على القذى،

وليس له بالصفح عن ذنبه علم [4]

حفظتُ الذى قد كان بينى وبينه،

وهل يستوى حربُ الأقارب والسلم ؟

---

١ - يحاول رغمى : إكراهى وإجبارى (على ما لا أريد).

٢ - إذا انتصرت عليه (انتصفت منه، عاملته كما عاملنى، حاولت رغمه) كنت كمثل الرجل الذى يعد لعدوه سهامًا ثم يعطيه إياها (إذا أسأت إليه كنت كمن يسئ إلى نفسه). يستهاض بها العظم ؛ يكسر بها العظم (تعظم فيه الإساءة).

٣ - فبادر منى النأى : فبدأت أنا بالنأى (بالابتعاد، تركت الانتقام منه). والمرء قادر إلخ : ما دام السهم لا يزال فى يدك فأنت قادر على أن تطلقه متى شئت. (ما دمت لم تعمل عملا ما، فأنت بالخيار تستطيع أن تعمله فى المستقبل أو لا تعمله).

٤ - مع أننى إذا عفوت عن سيئاته فإننى أغضى (أطبق) جفنى على القذى (على وسخ العين الذى هو نتيجة مرض الرمد، على الأذى) : أصبر على أذاه مع أن ذلك يؤلم نفسى.

فما زلت في لين له وتعطف

عليه، كما تحنو على الولد الأم ،

لأستل منه الضغن حتى استللته ،

وإن كان ذا ضغن يضيق به الحزم !

ومن قول معن بن أوس في الأخلاق الكريمة (الصناعتين ٥٥) :

لعمرك، ما أهويت كفي لريبة

ولا حملتني نحو فاحشة رجلي [١]

ولا قادني سمعي ولا بصري لها

ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبة

- من الدهر - إلا قد أصابت فتى قبلي !

ولستُ بماشٍ - ما حييتُ - لمُنكرٍ

من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي ،

ولا مؤثراً نفسي على ذي قرابة

وأوثرُ ضيفي - ما أقامَ - على أهلي [٢]

• • •

---

١ - ما أهويت كفي (ما قصدت، ما أسرعت، ما اتجهت) لريبة (لعمل يشك الناس عادة في صلاحه، يثير الظن السيئ) . الفاحشة : العمل القبيح .

٢ - آثر : فضل .

عمر بن عبد العزيز

١ - هو عُمَرُ بنُ عبد العزيزِ بنِ مَروانَ بن الحَكَم بن أبى العاص الأُموىّ ؛ وأمه أمّ عاصم، وهى ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

وُلِدَ عمر بن عبدالعزيز سنة ٦٣ هـ (٦٨٢ - ٦٨٣م) فى المدينة [1]، وكان أبوه عبد العزيز وليًا للعهد، إلا أن عبد الملك كان يُحاول أن يُحوِّل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد . ففى مُستهل رجب من سنة ٦٥ هـ ولى عبد الملك أخاه عبد العزيز على مصر إرضاء له وإبعادا عن المطالبة بالخلافة . وحرص عبد العزيز على أن يبقى ابنه عمر فى المدينة يتعلم فيها الحديث والفقه على علمائها ،وقد بقى عمر فى المدينة حتى توفى أبوه عبد العزيز فى مصر، سنة ٨٤ هـ (٧٠٣م) .

وكتب عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز يستقدمه إلى دمشق ثم زوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك .

وفى شوال من سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) توفى عبد الملك فخلفه ابنه الوليد ، وفى ربيع الأول من سنة ٨٧ هـ (٧٠٦م) ، بعد خمسة أشهر ، عين الوليد بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز واليًا على المدينة ، فعاد عمر بن عبد العزيز إلى المدينة التى كان يحبها كثيراً والتى اتفق أن قضى فيها قسمًا كبيراً من حياته .

وفى سنة ٩٣ هـ (٧١٢م) استقدم الوليد بن عبد الملك ابن عمه عمر من المدينة إلى دمشق من غير أن يُعلن خلعه أو أن يشئ إليه ثم عين مكانه عثمان بن حيان . وكان سبب تنحية بن عبد العزيز عن المدينة إلحاح الحجاج بن يوسف على

---

١ - فى ذلك الحين كان عبد الله بن الزبير قد استبد بالحجاز (راجع فوق ، ص ٤٤٢) .

الوليد بذلك. كان الحجاج يسير في العراق سيرة حزم وبطش أحيانا، فكان نفرٌ كثيرون يهربون من العراق إلى المدينة فلا يستطيع الحجاج بعد ذلك أن يصل إليهم.

وفي صفر من سنة ٩٩ هـ (مطلع الخريف من عام ٧١٧م) كان سليمان بن عبدالملك (٩٦ - ٩٩ هـ) في مرج دابق (شمالي سورية) في حملة على بلاد الروم فتوفي؛ ولم يكن أحد من ولديه أهلاً للخلافة فأشير إليه بأن يعهد بالخلافة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز (وكان عمر مع سليمان في مرج دابق).

سار عمر بن عبدالعزيز في الخلافة سيرة صالحة: حكم بالعدل وعامل الرعية بالإحسان ومنع الظلم. فقد أمر بإبطال لَعْنِ علي بن أبي طالب على المنابر في عقب خُطبة يوم الجمعة [١] وجعل مكان اللعن الآية الكريمة من سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١٦ : ٩٠). وأمر عمر بن عبدالعزيز بردّ الجيوش الإسلامية من حصار القسطنطينية [٢]، كما كان يريد أن يرد المسلمين من الأندلس. فلما قيل له أن المسلمين أصبحوا كثرة قوية في الأندلس أمر ببقائهم [٣]. وعمَّ الغنى في أيامه فكان المسلم يحملُ زكاته ويطوف بها في الإمبراطورية الإسلامية فلا يجد مستحقًا يدفعها له. وكان بنو أمية يتشددون في السماح لغير العرب بالدخول في الإسلام، فجاء عمر بأن تترك الحرية للناس، فدخل أهل مصر وأهل التركستان في الإسلام في أيامه.

---

١ - راجع فوق: ص ٣٧٢.

٢ - راجع العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط للمؤلف (بيروت ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨م)، ص ١١١.

٣ - راجع العرب والإسلام في الحوض الغربي.... للمؤلف (بيروت ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩م)، ص ١١٣.

ومنع عمر بن عبدا لعزيز أعضاء البيت المالك من بنى أمية أن يأخذوا من بيت المال فوق ما يستحقون فانقسم عليه هؤلاء، ويبدو أنهم هم الذين دسوا له السم [1]. وإذا كان عمر بن عبدا لعزيز لم يمت من السم حالا فإنه لم يُعمر بعد ذلك طويلاً، فقد كانت وفاته فى رجب من سنة ١٠١ هـ (٧١٩م)، فى دمشق.

٢ - كان عمر بن عبدالعزيز من خطباء بنى أمية المعدودين (راجع البيان والتبيين ٢ : ٣٥٣). وقد كان له اهتمامٌ بالتأليف فقد أشار على محمد بن مُلسم بن عبيد الله بن شهاب الزُّهرى (٥٠ - ١٢٣ هـ) بجمع أحاديث رسول الله. ونحن لا نعلم إذا كان الزهرى قد جمعها ثم ضاعت مجموعته، أو أنه لم يجمعها.

وعلى خطابة عمر بن عبد العزيز نفحةٌ دينية شديدة مع سلاسة وعذوبة. وله أقوال مفردة رائعة جداً تدل على تفكير صاف وعقل نيِّر بالإضافة إلى صحة فى اللغة ومتانة فى التركيب.

٣ - المختار من خطبه وأقواله :

لما توفى سليمان بن عبد الملك اجتمع الناس (وكان قد أوصى بالخلافة لعمر بن عبد العزيز)، فسار عمر بن عبدالعزيز إلى المسجد ثم خطب فى الناس فقال: أيها الناس: إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رغبة كانت منى ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم.

(فصاح الناس كلهم أنهم يريدونه للخلافة، فتابع كلامه وقال) :

---

١ - سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبد الحكيم (راجع رقم ٤ من هذه الترجمة)، ١١٨ - ١١٩، ١٧١.

أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خلفٌ من كل شئ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف [١] واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تعالىٰ أمر دنياه. وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم هادم اللذات [٢] وإن من لم يذكر من آبائه - فيما بينه وبين آدم - حيًا لمُعرقٌ في الموت [٣].

وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ ولا في كتابها، وإنما اختلفوا (أي أفراد الأمة) في الدينار والدرهم. وإني، والله، لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحدا حقا. إني لست بخازن، ولكني أضع حيث أمرت [٤].

أيها الناس: إنه كان قبلي ولاة تجترون مودتهم [٥] بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. من أطاع الله وجبت طاعته [٦]، ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعت الله فيكم [٧]، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

---

١ - لو أضاع الإنسان كل شئ (من دنياه) لعوضته التقوى ذلك كله (في الآخرة). ولكن لو ترك تقوى الله (في هذه الدنيا) لما نفعه شئ قط.

٢ - هادم اللذات: الموت.

٣ - إذا كان الإنسان يعلم علم اليقين أن جميع أسلافه بلا استثناء قد ماتوا، فهذا دليل على أنه هو أيضًا سيموت. معرق في الموت: الموت يأخذ من أسلافه واحداً واحداً منذ زمن قديم جداً.

٤ - أنا لا أضن بشئ على أحد منكم، ولكني أعطي من أمرني الله أن أعطيهم.

٥ - تجترون مودتهم: تظهرون المودة لهم بأفواههم (كالبهيمة تخرج الطعام من جوفها لتعيد مضغه من غير أن يكون في ذلك زيادة في طعامها).

٦ - إذا كان الخليفة يطيع الله فقد وجب على الرعية أن تطيع ذلك الخليفة.

٧ - استمروا في طاعتي ما دمت أنا مستمراً في طاعة الله.

وخطب عمر بن عبد العزيز فقال :

أما بعد، أيها الناس : إنه ليس بعد نبيكم ﷺ نبي، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب . فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة . ألا إنى لست بقاضٍ ولكنى منفذ لله، ولست بمبتدع ولكنى متبع . ألا إنى لست بخيركم، ولكنى رجل منكم، غير أن الله جعلنى أثقلكم حملا .

يا أيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

ومن أقوال عمر بن عبد العزيز (من البيان والتبيين) :

ما قرن شئ إلى شئ أفضل من حلم إلى علم، ومن عفو إلى مقدرة (١ : ٢٥٨) .

من قال : لا أدرى فقد أحرز نصف العلم (١ : ٣٩٨) .

وسأل رجل عمر بن عبد العزيز عن القتلى فى معركة الجمل وصفين [١] فقال : تلك دماء كف الله يدى عنها، فلا أحب أن أغمس لسانى فيها (٢ : ٢٨٩، راجع ٣ : ١٣٠) .

مر عمر بن عبدالعزيز برجل يسبح بالحصى، فإذا بلغ مائة عزل حصاة [٢] فقال له : ألق الحصى وأخلص الدعاء (٣ : ٢٨١) .

سمع الناس مرة الصواعق ودوى الريح وصوت المطر ففزعوا فقال عمر بن عبدالعزيز : هذه رحمته فكيف عذابه (٣ : ٢٨٥) !

---

١ - أيهم أصاب وأيهم أخطأ . راجع الكلام على معركتى الجمل وصفين، فوق، ص ٢٣٩، ٣٨٠، ٤٠٥ .

٢ - وضع حصاة واحدة جانبًا للدلالة على أن سبح الله مائة مرة .

أبو النجم الراجز

١ - هو أبو النجْم الفضلُ (أو المُفضَل) بن قُدامة العجلي، من بني ربيعة بن مالك بن عجل من بني بكر بن وائل. ويبدو أن مولده كان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠م) وأن مسكنه كان في ضواحي الكوفة؛ وكان يأوي إلى المساجد.

اتصل أبو النجم ببني أمية منذ أيام عبدالملك ومدحهم ومدح الحجاج أيضا. ثم إنه وفد على هشام (١٠٥ - ١٢٥ هـ)، وكان قد ناهز السبعين، فأقطعه هشام موضعا في سواد الكوفة يُدعى الفرْك [١] فكان ينزله إلى أن توفي، سنة ١٢٠ هـ (٧٣٨م) في الأغلب.

٢ - أبو النجم من رُجاز الفُحول الإسلام الفحول المقدمين المشهورين؛ ومن الطبقة الأولى منهم، وكان مكثراً يقول رجزاً وقصيداً فيجيد. غير أن شعره متفاوت فيه الجيد وفيه الردئ. وربما قال بديهة أيضاً. أما فنون شعره فهي المديح والهجاء والطرد - في وصف الفرس والإبل خاصة. - وكان مظفراً في الهجاء: كان يهاجي العجاج، هاجاه في مربد البصرة فغلبه. واجتمع الشعراء مرة عند سليمان بن عبدالملك فأبوا أن يفاخروه رجزاً، فقال قصيداً وغلبهم (غ ١٠ : ١٥٣ - ١٥٤).

٣ - **المختار من شعره:**

يرى ابن قتيبة (الشعر والشعراء ٣٨١) أن أرجوزة أبي النجم التالية أجود أراجيز العرب، قال فيها :

١ - الشعر والشعراء ٣٨١؛ راجع القاموس ٣ : ٣١٥ «الفرك قرية قرب كَلوازى». وكَلوازى (بفتح الكاف) قرية أسفل (جنوب) بغداد (القاموس ١ : ٣٥٨).

الحمدُ لله الوَهوبِ المُجْزِلِ

أعطى، فلم يبخلْ ولم يُبَخَّلِ [١]

كُومَ الذُرى من خَوَلِ المُخَوَّلِ

تبقلت من أول التبقُّلِ [٢]

بين رماحَىْ مالكٍ ونَهْشَلِ

يدفعُ عنها العزُّ جَهْلَ الجُهَّلِ [٣]

حتى إذا الشمسُ بدتْ للقُيَّلِ

بالنصف من حيثُ غدت والمنزلِ [٤]

جاءت تَسامى فى الرعيلِ الأولِ

والظلُّ عن أخفاقِها لم يَفْضُلِ [٥]

وراجز أبو النجم العجاج فخرج العجاج على ناقة له كوماء وعليه ثياب حسان وخرج أبو النجم على جمل منهوءٍ وعليه عباءة فأنشد العجاج :

قد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فجبر

---

١ - المجزل : المعطى كثيراً. لم يبخل (بتشديد الخاء) : لم ينسبه أحد إلى البخل.

٢ - يصف أبو النجم الإبل فى الأبيات التالية. كوم جمع كوماء (عظيمة) الذرى (السنام). من خول (عطايا) المخول (الله تعالىٰ)، تبقلت : زعت البقل. فى أول التبقل : أول نبت البقل (أول الربيع) فأسمنت (عظم سنامها) وسمنت.

٣ - رعت فى حماية بنى مالك وبنى نهشل، فكان عزهم (قوتهم) تدفع عنها جهل الجهال (الذين يفكرون بالغارة عليها).

٤ - القيل الذين يقيلون (ينامون بعد الظهر)، يقصد «حتى إذا انتصف النهار».

٥ - جاءت (إلى الماء) تسامى : رافعة أعناقها لنشاطها. فى الرعيل الأول؟؟؟؟؟؟ طليعة لسائر الإبل (جاءت تشرب قبل جميع الإبل لأننا نحن أصحابها أقوى سائر القبائل). والظل عن أخفافها لم يفضل : الشمس فى كبد السماء وظل كل شئ تحته تماماً.

ثم أنشد أبو النجم :

تذكَّرَ القلبُ وجهلاً ما ذكَرْ

حتى إذا بلغ إلى قومه :

إني وكلَّ شاعرٍ من البشرْ

شيطانُهُ أُنْثى وشَيْطَاني ذكَرْ

فما رآني شاعرٌ إلاَّ اسْتَتَرْ

فعْل نُجوم اللَّيل عاينَّ القمرْ

عشَّى تميمُ واصغُرى فيمن صغُر

وجاوري الذلَّ وأعطى من عشرْ

وأمرى الأُنثى عليك والذَّكرْ

فإنَّما يَشْربُ من ذَلَّ السُّؤرْ

وأرضى بإحلابه وطُبٍ قد حزَرْ

فلما فرغ من إنشاده حمله جملة على ناقة العجاج يريدها فضحك الناس وانصرفوا وهم ينشدون قوله :

شَيْطَانُهُ أُنثى وشيطاني ذكر

وهو القائل :

قد زَعمتْ أمُّ الخيار أنى

شِبتْ وحَنَّى ظَهْرِىَ المُحَنَّى

وأعرضت فِعل الشُّمُوس عنِّى

فقُلتُ ما داؤك إلاَّ سنى

لن تجمعنى ودِّى وإنْ تَضِنِّى

وهو القائل :

كـــأنَّ ظـلاَّمـــةَ أُختَ شـــيـــبـــان

يتـــيـــمـــة ووالـدها حـــيَّـــان

الـعُـنـقُ مـنـهــــــا عَـطـلٌ والأُذنـان

ولـيـس فـي الـرِّجـلـيـن إلاَّ خـــــيطان

وقُـــصـــة قـــد شـــيطتـــهـــا النِّـــيران

تلك التي يضـــحك منهـــا الشـــيطان

وهو القائل :

سُـــبى الحـــمـــاة وابهـــتى علـيـــهـــا

فـــإن أتت فـــازْدلفى إليـــهـــا

ثُمَّ اقْـــرعى بالودِّ مـــرْفـــقـــيـــهـــا

ورُكـــبـتـــيـــهـــا واقـــرعى كـــعـــبـــيـــهـــا

وأعلقى كـــفـــيـــك فى صـــدغـــيـــهـــا

وقال :

أوصـــــيـــتُ من بـرَّة قـلـب حُـــــرًا

بالكلبِ خـــيـــرا والحـــمـــاة شـــرًا

لا تســـأمى خنقـــا لهـــا وجـــرًا

والحـىُّ عُـــمِّـــيـــهـم بشـــرٍّ طُرًا

ومما أُخذ عليه قوله فى البعير :

أخْنَسُ فى مـــثل الكِظام مَـــخْطـمُـــه

والأخنس القصير المشافر، وهذا عيب، وإنَّما توصف المشافر بالسبوطة والكظام القُنىُّ التى يجرى فيها الماء، قالوا ولم يُحسن فى وصف ورود الإبل:

جــــاءت تســــامى فى الرَّعـــيل الأوّل

والظلُّ عن أخـــفـــافـــهـــا لم يفـــضلُ

ذكر أنها وردت فى الهاجرة، والعادة فى هذا أن توصف بالورود غلسًا والماء بارد كقول الآخر:

فـــوردَتْ قَـــبل الصـــبَّـــاح الفـــاتقِ

وكقول لبيد:

إنَّ مـــنْ وِردِى تـــغْـــلـــيـــسَ الـــنَّـــهَـــلْ

وكقول الآخر:

فـــــوَرَدْنَ قَـــــبْـلَ تَبَـــــيُّنِ الألْـوانِ

• • •

أهم مراجع البحث

- اتجاهات الشعر العربى فى القر الثانى الهجرى :

د . محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف ١٩٦٣م .

- أدب الشيعة :

د . عبد الحسيب طه ، مطبعة السعادة ١٩٦٨م .

- الأدب العربى وتاريخه :

د . محمد الجنيدى جمعه ، مطابع الرياض ١٣٧٧ هـ .

- الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى :

د . محمد عبدالمنعم خفاجى .

- الأدب العربى وتاريخه فى عصرى الإسلام والدولة الأموية :

د . محمود مصطفى ، طبعة الحلبى ١٩٣٧م .

- الأغانى :

الأصفهانى ، طبعة الساسى ١٣٢٣ هـ ، والهيئة المصرية ١٩٧٠م .

- الأمالى :

القالى . الهيئة المصرية ١٩٧٥م .

- البيان والتبيين :

الجاحظ ، المطبعة التجارية ١٩٢٦م .

- تاريخ آداب اللغة العربية :

كارلو نالينو ، دار المعارف ١٩٧٠م .

● تاريخ الأدب العربى :

د . أحمد حسن الزيات، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٠م.

● تاريخ الأدب العربى :

د . عمر فروح ، طبعة بيروت.

● تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى :

د . السباعى بيومى، طبعة العلوم ١٩٣٥م.

● تاريخ الإسلام السياسى :

د . حسن إبراهيم، النهضة المصرية ١٩٦٢م.

● تاريخ الأمم الإسلامية :

الشيخ محمد الخضرى، المكتبة التجارية ١٩٧٠م.

● تاريخ الأمم والملوك :

الطبرى، دار المعارف ١٩٦٦م.

● تاريخ الشعر السياسى :

د . أحمد الشايب ، النهضة المصرية، ١٩٦٦م.

● التطور والتجديد فى الشعر الأموى :

د . شوقى ضيف، دار المعارف ١٩٥٩م.

● تاريخ النقائض :

د . أحمد الشايب ، النهضة المصرية ١٩٦٦م.

● حب ابن أبى ربيعة وشعره :

د . زكى مبارك، المكتبة العربية ، بيروت ١٩٧١م.

● حياة الشعر فى الكوفة :

د. يوسف خليف، دار الكاتب ١٩٦٨م.

● الخطابة العربية فى عصرها الذهبى :

د. إحسان النص، دار المعارف ١٩٦٣م.

دواوين شعراء العصر الأموى الذين تناولهم البحث :

● الشعر والشعراء :

ابن قتيبة، دار المعارف ١٩٦٦م.

● طبقات الشعراء :

ابن سلام، طبعة صبيح.

● العقد الفريد :

ابن عبد ربه، المطبعة الأزهرية ١٩٦٨م.

● فجر الإسلام :

أحمد أمين، النهضة المصرية ١٩٦٥م.

● الفخرى فى الآداب السلطانية :

ابن طبا طبا، مطبعة الموسوعات ١٣١٧ هـ.

● الفن ومذاهبه فى الشعر العربى :

د. شوقى ضيف، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م.

● الفن ومذاهبه فى النثر العربى :

د. شوقى ضيف، النهضة المصرية ١٩٤٦م.

● فى الأدب الإسلامى والأموى :

د. سليمان ربيع، مطبعة السعادة ١٩٦٦م.

● فى الأدب العربى القديم :

د. محمد صالح الشنطى.

● الكامل فى اللغة والأدب :

المبرد، المكتبة المركزية.

● كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر :

ابن خلدون، المطبعة الأزهرية ١٩٣٠م.

● المرشد إلى فهم أشعار العرب :

د. عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر، بيروت ١٩٧٠م.

● مروج الذهب :

المسعودى، كتاب التحرير ١٩٦٦م.

● مقاتل الطالبيين :

الأصفهانى، طبعة الحلبى ١٣٤٩ هـ.

● من حديث الشعر والنثر :

د. طه حسين، دار المعارف ١٩٣٦م.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

* * *